محمّد مفلاح

رواية

الوساوس الغريبة

دار الحكمة

الوساوس الغريبة

- الناشر: دار الحكمة للنشر والترجمة
1 نهج أميلكار كابرال- ساحة
الشهداء- الجزائر العاصمة
الهاتف : 58 24 71 021
الفاكس : 56 99 71 021

- العنوان : الوساوس الغريبة/رواية
- المؤلف : محمد مفلاح
- السنة : السداسي الثاني 2005

- الإيداع القانوني :
- ردمك :

محمّـــد مفلاح

الوساوس الغريبة

(علـى هامش مقتل الأرملة الثرية)

روايـــــة

دار الحكمـة

بمثابة التقديم

كم كانت سعادتي عظيمة عندما قدم لي الصديق العزيز محمد مفلاح هذا الخطاب الروائي المتميز لأدبج فيه كلمة تقديمية وهو تشريف أحظى به وثقة أعتز بها من لدن أخ وفي ونائب ونقابي وروائي وقاص وباحث له رصيد في النضال والكتابة مشهود. أقدر فيه ثباته في الدفاع الشجاع عن الحق والوقوف الدائم إلى جانب الجزائر الشامخة، يعمل بصمت ودون بهرجة أو تلميع أو مساحيق يعيش على الفطرة في كتاباته وطرائق تشكيله الأسلوبي، له جماليات سردية تنفذ بسحر بيانها إلى أعماق المشاعر، تتقاطع فيما يكتب الأزمنة، تظهر حتى تجلو فتصبح تاريخا صرفا، وتتستر بفعل التخييل والتحجيب حتى تنأى عن القبض والتحديد، وبين الشفافية والتكثيف تكتسي طقسا خاصا، يختلط فيه الواقع بالمتخيل، وفي ذلك ما فيه من آراء الباحثين والفلاسفة والنقاد المنظرين، موضوع التاريخ والفن ومدى إفادة الفن من التاريخ، الحقيقة والمجاز، الواقع والخيال، وإلى أي مدى يمكن أن ينعكس الواقع في الفن، ووراء هذا التساؤل إجابات تختلف باختلاف الآراء والمرجعيات، وإن كنت من المناصرين لوضع الحدود بين مختلف الحقول المعرفية في زمن ليس بعيدا فإني بدأت أجنح إلى منظور تداخل المعارف لأن حقائق الواقع تدل في كل آن عن هذا التداخل، بل يكاد الجزم يهيمن بأنه ليس فيما ينتج البشر من أعمال أدبية وفنية انقطاع عن الواقع الذي أنتجت فيه، يبقى الآن كيف يصل الناقد إلى إدراك أوجه الاتصال وأوجه الانفصال عن هذا الواقع أو ذاك، وما هي

الأدوات الإجرائية أو المنظومة التحليلية والمنهجية التي تمكنه من الوصول إلى هذه الخصائص وما تحمل من دلالات، ومن المؤكد من يُعمل النظر يدرك المراد.

وأما رواية (الوساوس الغريبة)[1] ذات العنوان الفرعي (على هامش مقتل الأرملة الثرية) فبقدر ما هي طامحة إلى التنصل من صور الواقع بما فيه من تجليات وخصوصية بيئية وأحداث شاهدة على تاريخية مشاهدها ووقائعها؛ مشاهد ووقائع وأحداث مصاغة بلغة صريحة عارية شفافة تؤرخ بالأرقام أحيانا وتذكر بموضوعية ممزوجة بذاتية الانفعال والتفاعل قضايا أصبحت في عداد المباحث المتعارفة في إنجازات المؤرخين، قد يدفعنا ذلك إلى التساؤل هل يضير هذا الأمر جماليات الخطاب الروائي في شيء؟ قولنا بالنفي! لأن أساليب القص وطرق التناول ودروب السرد والرواية هي التي تعطي بعدا جماليا وفنيا للخطاب الروائي، وهذا ما توافر بشكل ساحر وفني في رواية (الوساوس الغريبة-على هامش مقتل الأرملة الثرية) فهي لا تؤرخ لسيرة بطل يعيش الاغتراب بكل أبعاده لأنه يحمل أفكارا ومتمسك بمبادئ ويعتقد بمرجعيات يناضل من أجلها بل يعاني في سبيل تبليغها، فهو يملك وعيا متقدما في دوامة مجتمع يعيش مخاض التحولات، ويخوض صراعا مريرا من أجل الحفاظ على هويته وانسجامه مع الذات، صراعا تمثل فيه الموت والنهايات والفناء كما يمثل فيه حب البقاء وفرض الذات وتحقيق الوجود، فهي ثنائيات ضدية

[1]- نشرت الرواية مسلسلة في شهر جانفي 2002 بجريدة (صوت الأحرار) - المؤلف.

فرضتها طبيعة الخطاب الروائي وما اشتمل عليه من رؤى تتصارع في كينونتها تصارع حقائق الوجود.

أقول أن الرواية غنية بما حوت من أفكار وقيم ومثل جاءت على ألسنة شخصياتها وساردها في كثير من المقامات كما أن بنيتها الجمالية والأسلوبية وأبعادها الوظيفية تنبئ بإمكانات فنية مهمة من السارد-الخارج نصي-أي السارد خارج الخطاب وهو الكاتب، وتعلن عن قدرة متميزة في تطويع لغة القص والتحكم في ملكتها، وتحميلها طاقات دلالية عميقة الرؤية بعيدة التصور. فهل بقولي ذا أصادر عن قراءات أخرى أكثر عمقا ونفاذا إلى محمول الخطاب دلاليا؟ لا أعتقد أني قدمت قراءة تفكيكية شاملة للبنية الوظيفية في رواية (الوساوس الغريبة) بقدر ما صغت انطباعا سريعا اقتضاه المقام، ولكني أدعو قراء هذا الإنجاز الروائي إلى إمعان النظر، وإدراك ما وراء السطور والكلمات من رؤى وأفكار، فكثيرا ما كان التلميح مهيمنا على التصريح، وكثيرا ما كان التحريض والاستفزاز متصدرا ملفوظات بعض شخصيات الرواية، ويسعى التبئير وتكثيف منظور الرؤية الفنية إلى مكاشفة الحقيقة في عسر مخاض التحول، والخلاص من حال الانتكاس والإحباط والتأزم والعسر إلى حال أكثر يسرا وسكينة، ولعل حراك المجتمع من حال إلى حال هو مدار اهتمام هذا الخطاب الروائي الذي نقدم ومأمول السعد في إنجاز أعمال أخرى تغني المكتبة العربية وتثري التجربة الروائية.

أ. د. نورالدين السد

-1-

تابع سكان المدينة أخبار مقتل "زينب الهَنيدي" باهتمام غريب بلغ درجة الهوس المخيف.. وطرح "عمار الحر" على نفسه أسئلة عديدة عن سبب هذا الاهتمام الذي لم يجد له مبررا معقولا ثم راح يسجل بعض الملاحظات المبعثرة في كناش صغير ذي غلاف أزرق، كان يحمله في الجيب الداخلي لسترته البنية. في البداية، أرجع سبب هذا الاهتمام إلى شخصية المرأة المقتولة في هذا الصيف الفظيع فهي أرملة ثرية معروفة بالانطواء على نفسها.

كانت تعيش في عزلة رهيبة بالفيلا الخضراء المطلة على العمارات الصفراء الباهتة اللون كما كانت مشهورة بنفورها من جيرانها، خاصة بعد اتهامها بقتل زوجها الثري. وكاد يحكم عليها بعقوبة الإعدام أو السجن المؤبد لولا جهود محاميها "سليمان الحسام" الذي اثبت بالدليل القاطع براءتها من تهمة القتل العمدي فأنقذها من غياهب السجن الرهيب. واعتقد عمار الحر أيضا، أن الاهتمام بهذه الجريمة كان بسبب المتهم "عبد الحكيم الوردي"، الشاعر المعروف بدعوته في أكثر من

مقال، إلى مذهب "التغيير الجذري" في الأدب.. وكانت أفكار هذا الشاعر في نظر خصومه، ضربا من العبث أو التمرد الطفولي.

وابتسم عمار الحر حين تذكر اليوم الذي تهجم فيه "بن عيسى الدريس" على الشاعر واتهمه أمام الملأ بالغرور وسب كتاباته التي اعتبرها تخريفا لا يليق بمثقف يعيش في زمن العولمة والتحديات الكبرى ثم خاطبه قائلا بغضب: "يا عبد الحكيم.. أحذرك من التعقيب المغرض على مقالاتي".. ورد عليه عبد الحكيم الوردي بهدوء يهيج الأعصاب: "أنا حر.. لن أنافق أي شخص.. ومن حقي أن أكتب ما أريد". وأردف قائلا بتحد: "وليكن في علمك أن عهد الوصاية السياسية قد ولى إلى غير رجعة".

وكاد ذلك اللقاء أن يتحول إلى عراك باللكمات العنيفة لو لم يتدخل عمار الحر الذي قال لهما ضاحكا: "لم أفهم شيئا.. أنتما مثقفان ومع ذلك تتصارعان كالصبيان.. فماذا جرى لكما؟". وأشار بن عيسى الدريس إلى عبد الحكيم الوردي وهو يقول لعمار الحر: " أنه يتفوه بكلمات غامضة لا يفقه معناها ومع ذلك فهو

يرددها بلا حياء.. فبخربشاته المنشورة في الجرائد سيسهم في بث الفوضى في أذهان الناس. وأنا كما تعرف يا عمار ، رجل جدي ولا أحب الكلام الفارغ".

ورشف عمار الحر قهوته قائلا في نفسه: "ومن يحب الكلام الفارغ يا سي بن عيسى؟ لا أحد. لا أحد.

ألم يكن عبد الحكيم الوردي من ضحايا هذا الفراغ المفزع؟!" وحك قفاه بقلم حبر أخرجه من الجيب الداخلي لسترته القديمة، وقلب أوراق كناشه الأزرق الذي يبسطه أمامه على الطاولة الخشبية ثم كتب: (الفراغ : غول رهيب ينهش حياتنا اليومية بلا شفقة ولا رحمة ونحن نتفرج عليه كالمقيدين. ماذا جرى لنا يا رب؟)، ووضع خطين تحت كلمة "الفراغ". إنها الكلمة التي تفزعه كثيرا.. الكلمة القاتلة للروح. وفكر بصوت مسموع : "لهذا ربما كان الفن، وكانت الكتابة لمواجهة الفراغ المهول".. وقرأ ما كتبه بصوت خافت. ظل قابعا في الزاوية اليمنى من مقهى "السعادة" المقابل لمقر البلدية وهو يفكر في مقتل الأرملة الثرية ثم تساءل من جديد: "ألا يعود اهتمام الناس إلى الطريقة الوحشية التي اقترفت بها الجريمة؟"، وهز رأسه ثم

كتب في كناشه الصغير: (إنها جريمة بشعة.. بشعة..
لمَ كل هذه الهمجية؟ ومن تكون زينب الهنيدي؟ وكيف
حدثت الجريمة في هذا الوقت بالذات؟).

.....

لقد طعنت الأرملة الثرية بخنجر داخل الفيلا الفخمة المحاذية للمساحة الخضراء التي تتوسط حي "تلمينه" الجميل، وفي فترة اطمأن فيها الناس وشعروا بعودة الأمن والاستقرار غير أن مقتل زينب الهنيدي الذي حدث في ظروف غامضة أستغله المتشائمون لإثارة المخاوف الدفينة ولكن سرعان ما تبددت الشكوك، خاصة بعدما كتبت الصحافة الوطنية في اليوم الموالي عن الجريمة وملابساتها، وذكرت اسم المتهم الذي لم يكن مجهولا في المدينة فهو الشاعر عبد الحكيم الوردي المعروف بقصائده الغريبة وبانتسابه إلى جمعية (أدباء الاحتجاج) الذين يرون في ممارسة الفن ثورة حقيقة على القيود المعرقلة لجهود الإنسان في تحقيق سعادته.

ولم يصدق موظفو المؤسسة الإدارية التابعة للولاية أن زميلهم الشاعر قد ارتكب الجريمة الشنعاء التي انتشر خبرها بسرعة البرق، في مدينة "غليزان" وضواحيها البعيدة. حقا، لاشيء كان يدل على أنه شخص قادر على قتل زينب الهنيدي والاستيلاء على أموالها وحليها الثمينة.. وتعجب الزملاء كثيرا لما علموا بأنه كان على علاقة وطيدة بالأرملة التي ورثت فيلا ومحلات تجارية وثروة طائلة بعد مقتل زوجها "قدور القُناش". ويوم القبض على المتهم، قصد بعضهم "نصيرة التل" في مكتبها الصغير، على أمل معرفة بعض الأخبار عن الجريمة التي جعلت من خطيبها السابق لغزا محيرا ولكن نصيرة التل التي كانت في الماضي القريب تردد فرحة بأنها خطيبة شاعر كبير، واجهت تساؤلات الزميلات والزملاء باللوم والسخط، وقالت لهم بأنها تجهل كل شيء عن الجريمة ومع ذلك فإن كل معارفها كانوا يريدون منها أن تروي لهم أي شيء عن الجريمة.. ولم تكذب عليهم بل قالت لهم بوقاحة إن مصير عبد الحكيم الوردي المشؤوم لا يعنينها.. لقد أصبحت نصيرة التل بصراحتها الجارحة

فتاة مخيفة ومزعجة إلى درجة أن زميلتها "خديجة السفار" نصحتها بطلب عطلة والمكوث في البيت أو الهرب إلى مدينة وهران لقضاء أيام هادئة على شواطئها الجميلة. وهزت لها نصيرة التل رأسها وهي تؤكد لزميلتها العانس أن كلام الناس لا يهمها ولن ينال من عزيمتها ولكنها في الوقت نفسه لم تكن راضية عن نفسها. ولا مطمئنة على مستقبلها.. كانت تشعر بالخوف المدمر يتسلل إلى أعماقها. لقد خدعها عبد الحكيم الوردي الذي أحبته وتمنته زوجا مخلصا. وفجأة، انهارت كل آمالها، وأصبحت اليوم ترفض الحديث عن ماضيها القريب. فقبل علاقتها بالشاعر عبد الحكيم، مرت بتجربة حب فاشلة لم تندمل جراحها بعد. لقد أحبها السائق "عابد المحمود" ولم تتم الخطوبة بسبب أزمة السكن. وكان عابد المحمود يعيش مع والديه واخوته في بيت قديم وضيق يحتضنه حي "البحيرة الميتة"، ورغم رسائله الكثيرة التي بعثها إلى السلطات العمومية ومنها (رسالة مفتوحة إلى وزير السكن) التي نشرتها إحدى الجرائد الوطنية تحت عنوان "مواطن يطلب النجدة"، إلا أنه لم يستفد من أي سكن اجتماعي..

واقترح عليها عابد المحمود الحياة معه في كوخ متواضع بحي "الأرض المالحة" الذي انتشرت به البيوت القصديرية خاصة بعد الفترة التي تصاعدت فيها العمليات الإرهابية بالمنطقة، وترجاها أن تصبر قليلا حتى يجد حلا ملائما لمشكلة السكن ولكن نصيرة التل رفضت اقتراحه، ورجاءه، وكل وعوده. ولم تنصب لنصائحه فهي تعلم أن الحصول على سكن صعب للغاية وانتظار أشغال اللجنة البلدية لتوزيع السكن سيطول كثيرا.. ولم تستطع الصبر أكثر. كانت متلهفة على الزواج كما كانت قلقة على مستقبلها الغامض.

وفي أحد الأيام الممطرة، قالت له بحزم وجرأة: "لابد أن نفترق". ولم يتحمل عابد المحمود الصدمة فقال لها باكيا: "أحبك يا نصيرة". ولم ترد عليه.

شعر عابد المحمود بالإهانة. هددها بالقتل ثم اختفى من المدينة. وبعد أيام قليلة فقط، عاد إلى الحي وهو يرتدي حلة أنيقة. وانتظر ذات يوم خروج نصيرة التل من مقر المؤسسة الإدارية ثم تبعها عن كثب حتى إذا خلا بها في زقاق ضيق اعتدى عليها بالصفعات واللكمات والركلات.. ولما وقعت على الرصيف

المحفور انحنى عليها، ولف رقبتها بالمنديل الجريري ثم راح يضغط عليها بكل قواه. كاد يقتلها لو لم ينقذها بعض الرجال من جنونه.

وكان الفراق المؤلم.. وأدمن عابد المحمود شرب الخمور الرديئة لمواجهة هموم الوحدة القاتلة منتظرا فرصة للانتقام من الفتاة المثيرة.

واستطاعت نصيرة التل بمشقة كبيرة أن تتخلص من متاعب علاقتها السابقة التي كادت تقضي عليها.

لقد وقف عبد الحكيم الوردي إلى جانبها في وقت الشدة، وقال لوالدتها الساخطة عليها بأن ابنتها نصيرة هي أفضل امرأة عرفتها المدينة.. وهو الذي توسط لها لدى مدير المؤسسة فتحصلت على منصب عمل محترم بمؤسسة إدارية. وفي ظرف شهور قليلة، أصبحت نصيرة التل محل اهتمام كل الموظفين. تغيرت بسرعة.

تحولت إلى فتاة غريبة الأطوار.. تجسدت فيها الفتنة التي يخشاها كل شخص ينشد الهدوء والسلامة. كانت ترتدي الملابس الضيقة التي تبرز مفاتنها المثيرة للغرائز. أما شعرها القصير فقد صبغته باللون الأصفر الفاقع مما أضفى على وجهها الدائري الملون بأصباغ

الزينة، مسحة من الإغراء الذي أثار حولها شكوك الجيران وموظفي المؤسسة الإدارية. لهذا تعجب الناس لما علموا بعلاقتها العاطفية بالشاعر الذي اشتهر بكتاباته الجريئة.

.....

وقصة نصيرة التل مع عابد المحمود ثم مع عبد الحكيم الوردي، يعرفها جل زبائن مقهى "الزبير الزموري". أما عمار الحر فقد سمعها من "مسعود" نادل المقهى، ومن البطال "سعيد بوكرشة"، جار عائلة التل.

وحين خطر بباله الاتصال بنصيرة التل، تساءل إن كانت الفتاة الفاتنة مستعدة للحديث معه عن المتهم ثم ادخل كناشه الأزرق في الجيب الداخلي لسترته المهلهلة، ونهض. وابتسم للنادل النحيف ثم خرج من مقهى "السعادة". وسار بخطى هادئة نحو حديقة "الشجرة العملاقة" وهو يفكر بجد في الأسلوب الذي يكتب به عن صديقه المتهم بقتل الأرملة الثرية. وتوقف لحظة قصيرة أمام مقر البنك الجزائري ثم واصل سيره الحثيث نحو الحديقة الظليلة ولما تراءت له أشجارها

الباسقة مرر يمناه على شعره المجعد وقال في نفسه: "وقد يعود اهتمام الناس لرغبتهم الجامحة في معرفة ما يحدث لبعضهم من متاعب".. ثم تحسس كناشه الصغير الرابض في الجيب الداخلي لسترته، وحث الخطى نحو الحديقة.

.

-2-

دخل عمار الحر حديقة "الشجرة العملاقة" المقابلة لبناية المؤسسة الإدارية، وهو يبحث بعينيه المكدودتين عن نصيرة التل. تنهد فرحا حين رآها. سيلقاها بعد انتظار دام أياما. كانت نصيرة التل جالسة على المقعد الرخامي المحاذي للنافورة الموجودة وسط الحديقة الظليلة. تمنى ألا تتهرب منه. حك قفاه بيمناه وتنحنح.

شعر ببعض الاضطراب.. وهو يتقدم نحو الفتاة التي أثارت اهتمامه لعلاقتها الغريبة بصديقه عبد الحكيم الوردي. كانت ترتدي بنطلون "جينز" وقميصا بنفسجيا وقد لفت عنقها الطويل بمنديل حريري أبيض مزركش بنجوم حمراء وزرقاء، وكانت تنتعل حذاء جلديا أحمر من النوع المستورد الذي يباع في ساحة "السوق السوداء" والأزقة الضيقة المتفرعة عنها. كان مصرا على محاورتها. وهل ستتفهم انشغاله وتساعده على إنجاز مشروعه الجديد.. هذا المشروع الذي فتح له باب الأمل من جديد؟ فمنذ اليوم الذي سمع فيه بخبر القبض على عبد الحكيم الوردي، فكر بجد في الكتابة عن صديقه الشاعر الذي ازداد صيته في الأيام الأخيرة

واهتم الكتّاب بآرائه الجريئة التي جلبت له بعض المتاعب مع أدباء مشهورين انتقدهم في مقالاته الصحفية، وتحمس له أدباء من الجيل الجديد، التفوا حوله وأسسوا جمعية ثقافية اشتهرت باسم (أدباء الاحتجاج)، واعتبره بعضهم "رامبو" الجزائر المعاصرة. وكتبت عنه جل الجرائد والمجلات، ونشرت له حوارات كثيرة، وأظهرته ذات مرة التلفزة الوطنية، في نشرة أخبار الثامنة مساء وهو يقرأ قصيدة طويلة عنوانها "النفس المتجدد" التي نال عنها جائزة وطنية، وقد اعتبرها بعض النقاد نقلة نوعية في الشعر الجزائري المعاصر.

ورأى عمار الحر في مشروعه الجديد، الأمل الذي سيسمح له بالعودة إلى الكتابة. فبالكتابة وحدها، سيقضي لا محالة على حالة الوهن التي لم يتمكن من تجاوزها رغم زياراته العديدة للأطباء.

لقد نصحه الحكيم "الحاج التواتي" بقضاء بعض الأيام خارج المدينة وهمومها، واقترح عليه زيارة المناطق السياحية وخاصة المدن الصحراوية ولكن عمار الحر أصر على ممارسة الكتابة التي يرى فيها الدواء الشافي

من علة الملل المزمن.. تلك العلة الخبيثة التي ظلت تنخر قلبه الخائف من واقع يعج بالتناقضات الاجتماعية الحادة والصراعات السياسية الرهيبة. وتمنى لو تتعاون معه نصيرة التل للولوج إلى عالم صديقه الغريب. إنه يريد أن يسبر أغواره العميقة. وربما يجد في سيرته بعض العزاء.

ولما وقف قربها، لم تلتفت إليه نصيرة التل التي ظلت منهمكة في مطالعة الجريدة المكتوبة بالفرنسية.

وفي تلك اللحظة التي شعر فيها بالحرج، ألقى عمار الحر نظرة خاطفة على هندامه المهلهل وقال في نفسه أن مهمته مع الفتاة الفاتنة لن تكون سهلة. وتنبه فجأة لمنظره غير اللائق.. وتعجب من إهماله المخيف.

خجل من نفسه.. وتذكر بدلته الزرقاء التي اشتراها منذ سنوات من محلات "سوق الفلاح" ولكنه مازال يحتفظ بها لحد الساعة في خزانته الخشبية. لم يلبسها قط. وهل هي مناسبة لهذا الوقت الذي يعج بالموضة الصارخة؟ كاد يضحك ساخرا من تفكيره السخيف ثم همس قائلا : "لا يهمني رأي هذه المتهورة".. فهو عادة لا يعتني بهندامه. فما جرى له الآن؟ ولماذا يفكر في

ملابسه؟ ثم هز كتفيه مؤجلا التفكير في هندامه إلى وقت آخر. ومرر يمناه على وجهه ذي الشكل المثلث وتنهد. بدت له نصيرة التل بوجهها الدائري وشعرها ذي اللون الأصفر الفاقع، فتاة ناضجة خبرت الحياة طويلا. فهي ليست ساذجة كما كان يظن. لا ريب، سيجد صعوبة كبيرة في محاورتها ولكنه سيتجاوز كل العقبات بالحكمة والرزانة. أصبحت رغبته في الكتابة قوية جدا.. شعر فجأة بالقدرة على الكتابة. أجل، سيكتب.. وسيكتب عن شاعر جريء أثار بأفكاره الغريبة نقاشا حادا في واقع متكلس لا إبداع فيه ولا اجتهاد. إنه معجب به ولكنه لا يوافقه على جل أفكاره الغريبة.. سيكون كتابه مناسبة للتعبير عن آرائه في موضوع الحداثة وقضايا أخرى. لقد تعامل عبد الحكيم الوردي مع الحداثة ككلمة سحرية لا علاقة لها بالواقع وتطوره الطبيعي.. ولكن عمار الحر يرى أن للحداثة أكثر من مفهوم، فهو يتبنى المفهوم المندرج ضمن السياق التاريخي الذي تتحقق به هذه الحداثة. أجل.. فالحداثة التي يريدها لا تلغي خصوصية المجتمع الجزائري.. وسيكتب بصدق عن علاقته بالشاعر عبد

الحكيم الوردي. لقد استولت عليه هواجس الكتابة التي وترت أعصابه أكثر. شعر بأنه سينجز مشروعه قبل نهاية السنة إذا لم يحدث ما يعرقل جهوده. فحياته ستصبح فارغة كالطبل المثقوب إذا ما توقف عن الكتابة. قرر أن يكتب عن عبد الحكيم الوردي. فمحنة صديقه ستنتهي لا محالة، وسيخرج من الحبس ويعود كما كان طائرا مغردا.

وضيق عمار الحر عينيه البنيتين ثم قطب حاجبيه الغزيرين وانتظر. لم تلتفت إليه نصيرة التل التي تجاهلت وقوفه قربها متظاهرة بمطالعة الجريدة. وهذا ما أقلقه فحرك ذراعه اليمنى وهو يشير إلى المقعد الرخامي قائلا لها:

– آنستي.. هل تسمحين لي بالجلوس؟

وسكت منتظرا رد فعلها. تساءلت بعينيها الخضراوين فقط.. وتنهد عمار الحر قلقا. شعر برغبة ملحة في التدخين. وحين ادخل يمناه في جيب سترته باحثا عن سيجارة تذكر أنه نسي علبة السجاير داخل سيارته القديمة. خاف أن يفقد السيطرة على أعصابه أمام الفتاة التي واجهته بالصمت المهين. ضغط على

أعصابه، وقال في نفسه: "يا لها من ملعونة". إنها في نظر كل معارفه فتاة مخيفة، فسيرتها أصبحت تلوكها الألسنة الحادة بلذة وتشف. فكيف وقع عبد الحكيم الوردي في شراك هذه الفتاة المتهورة؟ لم ينس عمار الحر اليوم الذي سأل فيه صديقه النائب حسين السعيد عن سر علاقة عبد الحكيم الوردي بنصيرة التل، وكان رد حسين السعيد ذكيا لما قال له: "إنها بالنسبة لصديقنا الشاعر الملهم قصيدة جديدة فقط". وتحرك عمار الحر نحو الجهة اليمنى من المقعد.. تفرس في وجه نصيرة التل الدائري.. التهم عينيها الخضراوين وشفتيها الملونتين بالأحمر القاني. أنعشته الروائح الزكية المنبعثة من جسدها المثير. لم يجلس بجانبها كما تمنى بل ظل واقفا. فكر في الانتقام منها فقال في نفسه: "ألا تعلم المغرورة أنها الآن مجرد قصيدة رديئة؟" ثم قال لها بصوته الجهوري :

- أريد محاورتك في أمر هام.

أسندت نصيرة التل ظهرها إلى المقعد الرخامي بعدما وضعت الجريدة على ركبتيها ثم سمرت فيه عينيها الساخطتين وهي تداعب بأنامل يمناها خصلة

متمردة غطت جزءا صغيرا من جبينها العريض. وبعد ذلك تنهدت قائلة له بنبرة جافة:

- تفضل.. ماذا تريد؟

وحك عمار الحر مرة أخرى، قفاه وابتسم لها ابتسامة عريضة لمواجهة تجهمها. لم ترحب به كما توقع. ألقى نظرة خاطفة على الجريدة المبسوطة على ركبتيها، وقرأ بسرعة أحد عناوينها المكتوبة بالبنط العريض ثم علق قائلا:

- أخبار هذه الأيام سعيدة.. لم يحدث فيها ما يروع القلوب.. الحمد لله، لقد عمّ الأمن ربوع الوطن..

وفكر أن يسألها عن قضايا أخرى ومنها موقفها من الوضع العام ومن الجمعيات النسوية المتنافسة، قصد استدراجها للحديث عن الشاعر القابع في الحبس المؤقت ولكنه تردد خائفا من الانزلاق إلى الكلام الشائك عن الصراعات السياسية وما يترتب عنها من اختلاف أو خلاف.. ففي هذا الزمن الشرس، اختلطت المفاهيم وازداد اهتمام الناس بالأمور السياسية والحزبية والانتخابات المحلية والتشريعية إلى درجة الهوس المرعب. وخاف أن يبعده الحديث عن هدفه

المرسوم سلفا. إنه يريد أن يعرف كل المعلومات التي تساعده على إنجاز كتابه فقط. وبعد برهة من التردد قال لها بثقة وأمل:

- ستنتهي كل الأزمات وستزول كل الهموم..

طوت الفتاة الجريدة بهدوء وهي تقول له بضيق:

- العالم تغير والجيل الجديد لا يفهم ما تقولون.. ومع ذلك، تتكلمون وتتكلمون كأنكم على علم بكل شيء.. فماذا تريدون منا؟.. تكلموا.. ماذا تريدون؟"

احتار عمار الحر. لم يفهم ما كانت تعنيه نصيرة التل بعباراتها الغامضة الساخطة. لقد صدمته بلهجتها العنيفة.. أراد أن يردِ على سؤالها ولكن ماذا يقول لها؟ هز لها رأسه ذا الشعر المجعد فقط.. فكلماتها الغاضبة قد تكون تعبيرا عن قلقها من الحياة ومتاعبها. فلمَ يكلف نفسه عناء الرد عليها؟ لقد قصدها من أجل هدف واحد وهو محاورتها لجمع بعض المعلومات التي تساعده على الكتابة عن صديقه المحبوس. وستكون علاقة الشاعر بنصيرة التل من أهم الفصول في مشروعه الجديد.

كان ساذجا لما قرر أن يخفي عنها غرضه من وراء هذا اللقاء. ظن أنها لا تعلم بالعلاقة التي كانت تربطه بالشاعر المحبوس.. تلك العلاقة التي أثمرت صداقة قوية صمدت.في وجه الزمن وهمومه الكثيرة.. سيقف إلى جانبه حتى يطلق سراحه. وهو سعيد أيضا بهذه الصداقة التي حفزته على الكتابة.. وسيضمن الشهرة بهذا الكتاب إذا ما تمكن من إنجازه قبل أن يفقد حماسه للكتابة.

.....

لقد ألف في الماضي القريب بحثا نشر تحت عنوان "بصمات حضارية" بعدما نال عنه الجائزة الثانية في مسابقة نظمتها وزارة الثقافة. أما الكتاب الذي أختار له عنوان (أبحاثِ تاريخية)، فقد سمح له بمعرفة التاريخ الثقافي لمنطقته التي ما زالت في حاجة إلى التعريف بماضيها العريق. لقد انتهى من كتابة مخطوط (أبحاث تاريخية) في بداية التسعينيات ولم يُقدم على نشره لأنه مازال يعتقد أن التاريخ في زمن الأزمات، لا يشغل فكر من تحاصره الفوضى والكسل، وهو يرى أيضا أن

عبر التاريخ لا تهم من يقضي جل وقته أو كله في الجري وراء الصفقات التجارية وجمع الثروة فقط. لقد أراد بكتابه أبحاث تاريخية أن يلقي بعض الأضواء على أعلام المنطقة ليفهم الواقع المستجد فاكتشف في بحثه ما كان يجهله عن مدينته وضواحيها. فكتب عن ثورة "المحال" وشاعرها الشعبي "بسويكت السويدي" الذي ظل وفيا لقومه وأرضه. وكانت فرحته كبيرة لما عثر على قصيدة لهذا الشاعر الفحل.. كان يقرأ أبياتها بمتعة كبيرة. لقد أثرت فيه كثيرا إلى درجة أنه حفظها عن ظهر قلب. وردد بعض أبياتها في عدة مناسبات.

وغاص في أجواء ثورة "درقاوة" التي خصها الحافظ "أبوراس الناصري" بكتاب عنوانه (درء الشقاوة في فتنة درقاوة)، وذكر في بعض المناسبات كلاما لهذا الكاتب الذي قاله بسبب التهم الموجهة إليه من طرف باي وهران. ووجد عمار الحر نفسه في أوقات أخرى، يذوب شيئا فشيئا في أعماق الأرض الطيبة وهو يسمع أو يقرأ عن صلحاء المنطقة وأعلامها ومعالمها. وبعد الجهد الكبير الذي بذله في كتابه (أبحاث تاريخية)، نشرت له جريدة عمومية سلسلة من المقالات عن

التراث الشعبي للمنطقة.. ثم فكر في تأليف كتاب آخر عن التحولات الجديدة التي عرفها المجتمع الجزائري ولكنه لم يستطع صياغة فقرة واحدة. لقد فشل حتى في كتابة رسالة إلى صديقه المهندس "منور القاضي" الذي قدم استقالته من مصلحة الإعلام الآلي التابعة للبنك الجزائري، وهاجر إلى كندا. وعجز عن الانتهاء من أي مشروع حاول إنجازه وأرجع سبب ذلك إلى ظروفه النفسية وإلى التحولات السريعة التي تعرفها البلاد، ولم يرد الاعتراف بعجزه هو عن الكتابة.. عجزه النابع من ذاته المتكاسلة والخائفة من ضعفها أو من خوفه بالجهر بالمواقف الجريئة. ولما تبادل بعض الآراء مع النائب حسين السعيد في أمر الكتابة عن ثقافة المنطقة دون تحديد للموضوع الذي كان يختمر في ذهنه، شجعه صديقه على التأليف واعتبر مبادرته عملا مهما في مرحلة سادها الفراغ الثقافي المهول وقال له: "يا عمار.. بمثل هذا العمل الثقافي، ستبث الأمل في النفوس وتشجع الجيل الصاعد على خوض غمار الكتابة والإبداع". فكر أن يجتهد قليلا.

ولكن آه من هذا الشعور الخبيث الذي يمنعه من إنجاز أي عمل ثقافي يتطلب منه جهدا متواصلا.

إنه يتمنى لو كان قادرا على تأليف كتاب تتجاوز صفحاته الألف. فهو يحب الكتب الضخمة ويجد متعة كبيرة في تصفح أوراقها.. وكان يقرأ بعض فقراتها ثم يضعها جانبا ويسب نفسه على عجزها.

فكيف استطاع ابن خلدون أن يؤلف تاريخه المسمى (كتاب العبر وديوان المبدأ والخبر)؟ وكيف تمكن أبو الفرج الأصفهاني من تأليف (الأغاني)؟ ولما يقلب صفحات ثلاثية نجيب محفوظ يشعر بالرعب ويسب نفسه.. وفي لحظات اليأس كان يدور في غرفته الفسيحة وهو يصيح بصوت مهزوم: "ما الذي جرى لــــــــي؟".

واجتهد في تبرير عجزه عن الكتابة. وهل فشل في التكيف مع الواقع المستجد خاصة بعدما دخلت البلاد عهد التعددية؟ هنا يكمن الخطر. إنه لا يريد أن تمر حياته بلا إبداع. لقد نقل من رسائل "تولستوي" فقرة قصيرة كتبها في الصفحة الأولى من كناشه الأزرق وهي: (ليس هناك متعة حقيقية تعادل متعة الإبداع،

ومهما كان الذي ننتجه، قلما أو حذاء، خبزا أو طفلا، فلابد من الإبداع لتوفير المتعة الحقة، وحينما يغيب الإبداع يقترن العمل بالضيق والألم أو بالندم والخجل).

لقد أراد بهذه الفقرة أن يذكّر نفسه الخائفة من الفراغ، بمهمته الصعبة في هذه الحياة الصاخبة.

.....

وهل ستساعده نصيرة التل على أداء هذه المهمة الصعبة؟ وتتحنح عمار الحر وهو يقول في نفسه : "إنها قلقة".. ثم ابتسم لنصيرة التل التي لم تكن تنتظر منه جوابا على سؤالها بل وقفت وهي تضع الجريدة تحت إبطها الأيمن ثم ألقت نظرة سريعة على ساعتها الذهبية. وتحرك عمار الحر في مكانه.

خاف أن تتفلت منه الفتاة راجعة إلى مقر المؤسسة الإدارية فتضيع منه الفرصة التي اغتنمها بعد أيام من المراقبة والانتظار. وبسرعة قال لها:

– أريد رأيك في زميلك عبد الحكيم الوردي..

وتوقف عن الكلام. تذكر شيئا مهما وهو انه لم يقدم نفسه فقال لها معتذرا:

- نسيت أن أقدم نفسي.. أنا..

وقاطعته نصيرة التل قائلة ببرود:

- أعرفك. ألست عمار الكتبي، صاحب مكتبة (الربوة)؟

فاجأته الماكرة. كانت تعرفه. تأملها من جديد. أعجبه وجهها ذو العينين الخضراوين الصافيتين.

لقد سبق له أن رأى هذا الوجه الدائري ولكن أين؟ وبحث في ذاكرته التي أصبحت "مثقوبة".. وهزّ كتفيه متنهدا.. فهذه الفاتنة التي تحملق في وجهه، لا تستحق منه أي اهتمام. رغب في صفعها.

ولما ابتسمت له، شعر بأنه وقع في فج نُصب له في سرية تامة. إنها تعرفه. ألا تكون من منخرطي المركز الثقافي الذي استقال منه منذ سنوات طويلة؟ وتفرس في وجهها من جديد ثم سألها بلهفة:

- أين التقينا؟

ثم أضاف قائلا برزانة:

- عبد الحكيم الوردي شخص كتوم جدا. لم يحدثني عنك. ولكن بعد حبسه قررت أن ألقاك.. سألت عنك

فنصحني بعض الموظفين بالتوجه إلى هذه الحديقة.. ولكنك تعرفينني!..

هزت نصيرة التل كتفيها لعمار الحر الذي رأته - وهي طالبة- يزور ثانوية "بن عدة بن عودة"، ليلقي محاضراته بمناسبة بعض الأعياد الوطنية. لقد مرت سنوات طويلة لم تره فيها. لقد أصبح نحيلا وشاحب الوجه وكأنه مصاب باليرقان.. ثم قالت له:

- كنت تزور ثانويتنا لإلقاء المحاضرات وتنشيط الندوات.

ثم أردفت قائلة بدهشة:

- لقد تغيرت كثيرا.

وكاد يحدثها عن نفسه. تذكر أيام الماضي السعيد. كان شابا متحمسا. في تلك الفترة، انتقل والده "يحي الحر" من حي "البساتين" الشعبي، وبنى للعائلة بيتا فسيحا بحي "الانتصار" المحاذي لغابة صنوبر "الزنين".

كان عمار الحر مجتهدا في دراسته ولكنه توقف عن مواصلتها بجامعة وهران، والتحق بالمعهد العالي لتكوين مستشاري الثقافة، الذي قضى فيه سنتين.. واشتغل مستشارا بالمركز الثقافي.. وبعد ثلاث سنوات

من العمل تخلى عن وظيفته، والتحق من جديد بجامعة وهران فاختار الدراسة بكلية الاقتصاد. أراد أن يصبح مدير مؤسسة عمومية اقتصادية. ولكنه انقطع من جديد عن دراسته وعاد إلى مدينته. اقترح عليه والده المعوق، أن يفتح المحل التجاري ورفض عمار الحر ممارسة تجارة الملابس الجاهزة. وفي نفس السنة، سافر إلى جنوب البلاد وأصبح مكلفا بالتسيير الإداري بمؤسسة الأشغال البترولية وكاد ينسجم مع ظروف العمل بالصحراء لولا رسائل "فوزية العسلي" التي تهاطلت عليه كالأمطار، وجعلته ينفر من العمل في ورشات الحفر التابعة لمنطقة "حاسي مسعود"، ثم فر من رمال الصحراء و"البراريك" المكيفة عائدا إلى غليزان.. المدينة التي سكنت روحه الضائعة.. وأصبحت فوزية العسلي ملاذه الوحيد بعدما تخلى عن عمله. ولما توفي والده المعوق، فتح مكتبة متواضعة في مزحلة انتشرت فيها المقاهي والمطاعم والدكاكين في كل الشوارع والأنهج والأزقة الضيقة. وكان عبد الحكيم الوردي أول من شجعه على بيع الكتب والمجلات الدورية والجرائد اليومية إلى جانب الأدوات

المدرسية، وهكذا أصبح يعرف في المدينة باسم "عمار الكتبي" في مرحلة لم يعد فيها للكتاب أي معنى. وتنهد عمار الحر قائلا لنصيرة التل:

- كلنا تغيرنا ولكن عبد الحكيم الوردي لم يتغير.. مازال طفلا بريئا.. أنت تعرفينه جيدا.. ربما أكثر مني.. وقراء كتاباته، يعتقدون أنه عملاق قادر على تحريك الجبال الشاهقة ولكنهم لا يعرفون حقيقته فهو شاب رقيق الإحساس.. أليس كذلك؟ أريد رأيك فيه بصراحة".

وتنهدت نصيرة التل ثم مسكت الجريدة بيدها اليسرى وقالت له بحدة:

- عبد الحكيم غول حقيقي.. غول في جلد خروف.

- لقد تغير وأصبح شخصا خطيرا.. وأنت لا تعرف عنه أي شيء.

ورد عمار محتجا:

- ولكنه لن يجرؤ على ارتكاب تلك الجريمة البشعة.

وشعر أن واجب الدفاع عن صديقه المحبوس أنساه الهدف الذي دفعته للبحث عن نصيرة التل ومحاورتها. تمالك أعصابه ونصح نفسه بالهدوء.

وأشارت إليه نصيرة التل أن ينصت لها أولا ثم خاطبتـــه قائلـــة :

– لقد تعلق بتلك الأرملة الثرية التي أغراه مالها الطائل فسقط في فخها. ومن كان في وضع عبد الحكيم البائس لابد أن تخطر بباله تلك الفكرة الجهنمية التي ظن أنها ستنقذه من فقره المدقع.

لم يصدق عمار الحر أذنيه. مسح بيمناه وجهه ذا الذقن المدببة وهز رأسه دون أن يعلق على كلامها.

وحركت نصيرة التل حاجبيها المرسومين بدقة ثم راحت تداعب خصلة صغيرة من شعرها القصير وكأنها أمام مرآة. وتحدثت بحقد كبير عن عبد الحكيم الوردي فهو في نظرها مجرد شخص تافه ولا يستحق أي احترام ثم أخبرته أن عبد الحكيم الوردي فكر مرارا في الانتحار، وادعى أن الحياة فارغة من أي معنى، ولا تستحق منه كل هذا العناء، وكان يرغب في الهجرة إلى مكان لا يذّكره فيه أي شخص بحياته السابقة. ولم يغادر المدينة كما كان يردد بل قبع في بيته المتواضع يبحث عن أي حل ينقذه من الفقر.. لم يكن عبد الحكيم الوردي قانعا بمرتبه الشهري المتواضع الذي كان

يصرفه في شراء الأوراق والأقلام وأغلفة الرسائل والمجلات الأدبية والصحف اليومية والكتب المختلفة الأحجام والأشكال. وقالت بمقت:

- لقد فكر في الهرب من حياة البؤس فقتل الأرملة الثرية بعدما خدعها بثرثرته عن الشعر..

ولم يكن عبد الحكيم الوردي في نظرها شاعرا موهوبا فالكتابة التي كان يمارسها -كما قالت لعمار الحر- هي مجرد كلمات موزونة للتنفيس عن حرمانه وفقره المدقع الذي ظل ينخر حياته كالدودة الخبيثة ثم أردفت قائلة بحقد:

- لقد أراد أن يتميز بالشعر ليحقق ترقية اجتماعية أو مكسبا ماديا ولكنه فشل.. وظل مجهولا ومنبوذا في المؤسسة.. لم يلتفت إليه أي مسؤول من مسئولي المدينة لأنه كان شخصا تافها لا يمتاز بأي شيء جليل.. ولما سنحت له الفرصة انتقم من الجميع، قتل الأرملة الثرية واستولى على أموالها وحليها.

وظل عمار الحر واجما أمام نصيرة التل التي لم تترك له فرصة للتعليق على كلامها القاسي. وألقت

الفتاة الساخطة نظرة فاحصة على ساعتها الثمينة وقالت له:

– حان وقت العمل.

وحاول عمّار الحر أن يتكلم. مط شفتيه الجافتين ولكن نصيرة التل أشارت إليه أن يظل في مكانه ثم أخرجت هاتفها المحمول من جيب بنطلون "الجينز" وقربته من أذنها اليمنى وهي تسرع الخطى نحو مقر المؤسسة الإدارية. وادخل عمار الحر يديه في جيبي سترته المهلهلة، وفكر أن يشتري هاتفا محمولا.. ثم تنهد قائلا في نفسه: "أنا في حاجة إلى سيجارة". وسار بسرعة قاصدا سيارته الرمادية التي تركها قرب مقهى "السعادة"..

-3-

حلق عمار الحر ذقنه ووضع شيئا من العطر الزكي على خديه ورقبته الطويلة ثم تأمل وجهه الصغير جيدا.

ولما تذكر نصيرة التل سبها قائلا بصوت مسموع: "مغرورة.. متهورة.."، وفكر أن يبحث عنها.. تأثر كثيرا بموقفها من عبد الحكيم الوردي الذي كانت تحقد عليه وتريد الانتقام منه. لم تترك له فرصة للدفاع عن صديقه. حاول البارحة أن يسجل رأيها وبعض كلامها في كناشه الأزرق ولكنه لم يستطع أن يكتب جملة واحدة. سينتظر حتى تختمر الأفكار المضطربة في ذهنه المشوش. اخرج سيجارة "أفراز" من جيب سترة بدلته الزرقاء الجديدة، وأشعلها وهو يلقى نظرة فاحصة على بدلته التي ارتداها لأول مرة ثم قال لنفسه: "إنها بدلة لائقة.. لائقة جدا". وخرج من غرفة النوم قاصدا الصالة الفسيحة. وجد إبريق القهوة وفنجانا صغيرا على المائدة الخشبية.. جلس على كنبة مريحة متمنيا ألا يلقى والدته القلقة على حالته الصحية ومستقبله الغامض. كانت كل صباح تطارده بالأسئلة المحرجة.

ماذا جرى لك يا بني؟ هل أنت مريض؟ كيف أصبحت أصفر اللون؟ أهو السحر أم ماذا؟ لقد أصبحت نحيلا كالمسمار. فيمَ تفكر يا عمار؟ لا شيء ينقصك في هذا البيت. فكر في نفسك جيدا. لم لا تتزوج؟ أنا أمك.. لا تحرمني من رؤية أُحفادي. فوزية فتاة طيبة ومن أسرة محترمة فلمَ لا تتقدم لخطبتها؟ حافظ عليها.. إنها تحبنا.. فكر في مستقبلك يا بني.. وتتمنى "الحاجة زهرة الحر " أن يتزوج ابنها خلال هذا الصيف بفوزية العسلي التي ظلت تنتظر منذ سنوات، ليلة الزفاف.

وخاف أن تطارده والدته بكلام لا تمل من ترديده.

بلا ريب خرجت لشراء الخضر. إنه يعتمد عليها في كل شيء فهو لا يهتم إلا بمكتبته المتواضعة التي أطلق عليها اسم "الزبوة".. أصبح يمكث فيها ساعة واحدة أو ساعتين على الأكثر ثم يفر منها.. يركب سيارته الرمادية ويجوب شوارع المدينة وأزقتها الصاخبة، وفي بعض الأحيان يفر إلى وادي "مينه" فيجلس على ضفته اليمنى ويستسلم لأحلام اليقظة أو يطالع جريدة أو كتابا.

آه من الكسل.. هذا الداء الذي استولى عليه، وكاد يجعل منه شخصا لا طموح له في الحياة. لم تسمح له وساوسه الكثيرة أن يحدد لنفسه هدفا معلوما في الحياة.

ولاحظت فوزية العسلي، المعلمة المهذبة، ذلك الكسل المخيف الذي أجهض كل مبادراته فنصحته باستئناف عمله السابق ولكنه هز لها كتفيه وقال لها: "لن أعود إلى المركز الثقافي"، ثم أردف قائلا لها بسخرية : "الثقافة لا تحتاج لمستشار مثلي". ومرت سنوات وفوزية العسلي تراقب سلوكه الغريب، خاصة بعد عودته من الصحراء التي مازال يحن إليها. لم تعد قادرة على الانتظار أكثر. لقد تجاوز عمرها الثلاثين.

بالأمس فقط رأى عمار الحر شعرة بيضاء تغزو شعر رأسها الأسود الذي كانت تسدله على كتفيها.. وأشار إليها قائلا باستهزاء: "ها هي علامات الشيخوخة تلوح لك ببياضها يا فوزية". تأوهت فوزية العسلي وهي تقتلع الشعرة البيضاء بعصبية. فهل تستطيع الصبر أكثر في مجتمع يشك في أمر كل امرأة تجاوز عمرها سن العشرين ولم تتزوج؟ لقد أحبته منذ كان

مستشارا بالمركز الثقافي، ومضت على علاقتهما سنوات طويلة لم يقرر فيها عمار الحر أي شيء.

وكانت في كل لقاء معه، تثير قضية الخطوبة وتعبر له عن قلقها من كلام الناس.. وكان هو كالعادة يردد نفس العبارة: "لا تهتمي بكلامهم يا فوزية".. ويؤكد لها من جديد بأنه يعمل على تحضير اليوم السعيد بكل جدية ثم ينصحها بالصبر ويهمس لها بكلمات أغنية "الصبر جميل".

وتمر الأيام ولكن عمار الحر لا يحرك ساكنا. لقد دمره الكسل الموبوء. وانتظر خائفا.. ثم كانت اللحظة التي انتعشت فيها روحه. فرح كثيرا لما استعادت البلاد استقرارها. وأصبح هو يمارس أحلامه الكثيرة مستسلما للمقادير. لامه حسين السعيد يوما عن كسله ولامبالاته وقال له أن الإنسان هو محور كل تغيير حقيقي.. أما الانتظار فلا جدوى منه.

وطلب منه أن ينتفض على نفسه.. أن يثور على ضعفه. وتشعب بينهما الحديث إلى أسباب الأزمة التي أرجعها عمار الحر إلى قلة الحوار والأحكام المسبقة والممارسات الشعبوية وانتقد كثرة الخطابات الحزبية

المتناقضة في واقع يفرخ يوميا ألف مشكلة ثم تابع قائلا بحزم : "واليوم يا حسين.. يجب أن تبحثوا عن الحلول الجذرية. فعهد الترقيع قد انتهى.. لابد من ترسيخ المفاهيم الصحيحة.. فالمعركة الحقيقية هي معركة المفاهيم. فالشعب يريد الاستقرار والعدالة والمساواة.. ويريد أن يعيش في دولة آمنة وقوية لا يخضع فيها المواطن إلا لسلطان القانون".

ويحاول عمار الحر وبحماس كبير أن يقنع صديقه برأيه ولكنه سرعان ما يركن إلى العزلة ويكف عن التفكير في الشأن العام مفضلا الجلوس على ضفة وادي "مينه" أو لعب "الدومينو" في مقهى "الزبير الزموري" أو "مقهى السعادة".

ورغم السلبية المقيتة التي كان يتميز بها إلا أنه أحس الآن أن الملل بدأ يزايله منذ قرر الكتابة عن صديقه الشاعر. وسيعمل على إنجاز مشروعه الجديد. ولكنه أصبح يخشى أن يساوره الشك في جدوى عمله.

ما أقسى الشك في لحظات الضعف والقلق. تناول قهوته بسرعة. وقبل أن ينهض، ظهرت والدته

والابتسامة العريضة تلوح على شفتيها الجافتين. قالت له بفرح كبير:

- خرج عبد القادر من السجن.. الحمد الله، كل الأمور عادت إلى مجاريها. ألم أقل لك بأنه بريء؟ لم يسرق دينارا واحدا من خزينة الدولة.

اقترب منها عمار الحر قائلا لها بلهجة لطيفة:

-وأنا أيضا جد سعيد بإطلاق سراحه ولكن في أجواء التكالب على الأموال والجري وراء الثراء الفاحش، سيرتكب ابن أختك حماقة أخرى. أنا متأكد من ذلك.. فهو رجل يحب حياة البذخ والزيف.

وأراد أن يحدثها بما سمعه عن ابن خالته الذي مازال متابعا في قضية رشوة واختلاس أموال مؤسسة عمومية ولكنه فضل الصمت ثم خرج قاصدا مأرب البيت. وألقى نظرة باردة على سيارته (آر4) الرمادية التي كانت في حاجة إلى الصيانة المستعجلة.. لقد فكر في بيعها بسوق مدينة "ماسرة"، وتمنى أن يشتري سيارة أنيقة من نوع (كليو) ولكنه لم يفعل شيئا. ركب سيارته الرمادية، وانطلق بها متوجها إلى مكتبته. لقد ساعدته سيارته القديمة على مقاومة الملل في مدينة

يزداد كل يوم عدد سكانها ومقاهيها.. تلك المقاهي المكتظة بشباب ينهش آماله الفراغ المخيف. ففي جل أزقة الأحياء، انتشرت الحوانيت الصغيرة المتواضعة التي بدأ ظهورها في فترة الثمانينيات.. تلك المرحلة التي شهدت بداية غلق المؤسسات العمومية المحلية وبعض الشركات الوطنية المفلسة.. ودخلت البلاد مرحلة جديدة.. وتغير كل شيء.

اهتم عمار الحر بالوضع العام للبلاد محاولا جمع بعض المعطيات المتعلقة بمشروعه الجديد. وبعد تفكير مشوش، اعترف بأنه عاجز عن فهم الواقع المستجد.

اقترب من بعض المهتمين بالسياسة على أمل معرفة مواقفهم من القضايا المطروحة في الساحة الوطنية ولكنه لم يستطع فهم أحاديثهم المتذبذبة التي زادته حيرة واضطرابا فابتعد عنهم بل أصبح يخشاهم دون سبب معلوم وإن كان له من بينهم أصدقاء يحترمهم ويحبهم ولكنه تمنى لهم الابتعاد عن هموم السياسة و التيه في كواليسها.. ثم قرر تسخير جل أوقاته للتأمل والتسكع بسيارته الرمادية القديمة وانتظار فوزية العسلي التي كانت تزوره في مكتبته المتواضعة وهي تتمنى أن

تسمع.منه كلمة "زواج" حتى يهدأ بالها. وكانت المعلمة المهذبة تعيش على أمل الزواج منه في أقرب وقت ممكن. وظل عمار الحر يعيش في فوضى عارمة.

في أثناء دراسته الجامعية، كان عضوا نشيطا في فرع الطلبة ولجنة التطوع لصالح الثورة الزراعية.

وتمنى لو كتب أي شيء عن تلك المرحلة الحماسية.. ثم فكر في الكتابة عن أحداث أكتوبر 1988 فجمع كمية هامة من الجرائد التي تناولت تلك الأحداث الأليمة، واستعد لتأليف كتاب تمنى أن يجلب له بعض الاهتمام. ولم يكتب عن تلك الأحداث إلا صفحات قليلة نشرتها فيما بعد جريدة مسائية. ولم ينس تجاربه الفاشلة فكتابه المنشور لم يقرأه إلا عبد الحكيم الوردي، ومع ذلك يعرف الناس بأنه كاتب ويحثونه في أغلب الأحيان على مواصلة الكتابة وهو يعلم انهم لا يرغبون ولو من باب الفضول، في الاطلاع على مقالاته الصحفية أو على كتابه المنشور الذي مازالت نسخ منه مكدسة بالمكتبات. وما جدوى مطالعة الكتب في زمن الفضائيات والانترنيت والجري وراء المال والمنصب والشهرة؟ ومع ذلك قرر هو أن يطالع تاريخ الجزائر

قديمه وحديثه فاشترى كتبا كثيرة.. ولكنه لم يقرأ إلا صفحات قليلة من (تاريخ الجزائر العام) و(تاريخ الجزائر الثقافي)، وأطلع على فقرات قليلة من كتاب (ثورات الجزائر..)، وتصفح كتبا أخرى لا يذكر عناوينها. ثم ماتت في نفسه الرغبة في المطالعة الجادة والكتابة المرهقة. يا للعجب، في زمن حرية التعبير، أصبح كل شيء في نظره غامضا.. لقد كثرت الخطابات التي أفرزت المفاهيم المتناقضة والغريبة. نصحه عبد الحكيم الوردي بالقراءة المستمرة ثم قال له ضاحكا: "عليك أن تتكيف مع التعددية يا عمار". ولم تعجبه ملاحظة صديقه فرد عليه بعنف: "وما الفائدة من هذه التعددية إذا ما ظلت مسرحا للصراعات الحزبية فقط".. واستطرد قائلا: "لابد أن تكون التعددية فضاء للحرية والمبادرة والإبداع.. تعددية قادرة على تجاوز كل المصائب التي عرفتها البلاد.. وقادرة على دفع المجتمع إلى الرقي والازدهار".

وقال له عبد الحكيم الوردي: "إنها البداية.. وسترى ثمار التعددية بعد سنوات من الجهد والتضحية.. فتعال لنناضل معا في جمعيتنا".. ولم ينتم عمار الحر إلى

جمعية (أدباء الاحتجاج) كما رفض الانخراط في الأحزاب والجمعيات.. ففي لحظات الوساوس المخيفة، كان يتشبث بحب فوزية العسلي التي تعرّف عليها لما كان مستشارا بالمركز الثقافي. وحين أحبها وعبـــر لها يوما عن نيته في طلب يدها من والدها المتقاعد، فرحت فوزية وانتظرت أن يبادر بالخطوبة، ولكنه كعادته نسي الموضوع أو تناساه. وظلت فوزية العسلي هادئة في مواجهة سلوكه المضطرب.. هذا الهدوء الذي كان يتمناه عمار الحر لنفسه.

ومنذ اهتمامه بمحنة الشاعر عبد الحكيم الوردي، شعر عمار الحر بالحماس للكتابة ونسي فوزية العسلي.

تأثر كثيرا بموقف صديقه الشاعر من الحياة، وأعجبته دعوته إلى فكرة "التغيير الجذري" في الأدب.. وفي الحقيقة، لم يكن عمار الحر قادرا على فهم ما كان يقصده عبد الحكيم الوردي وهو يتحدث بإسهاب عن هذا "التغيير الجذري". كان صديقهما حسين السعيد يضحك ملء فيه من هذا "التفلسف" الساذج ويقول لعمار الحر ناصحا: "يا أخي عمار.. إن الأفكار التي ينادي بها عبد الحكيم الوردي لا يمكن أن تخرج البلاد من

أزمتها.. فالمجتمع في حاجة إلى حلول واقعية.. أما فلسفة العبث واللامنتمي فهي تقليد أعمى لمثقفين أجانب اسهموا قبل هذا "التفلسف"، في ترقية شعوبهم وترسيخ قيم العدالة والمساواة، وضحوا بالقول والفعل في وضع القواعد الصلبة لدول قوية سياسيا واقتصاديا وثقافيا".. ثم قال له بحماس: "وأنت يا أخي عمار تستطيع أن تسهم بالكتابة في تطور المجتمع ونشر الثقافة وترقية الديمقراطية". واقترح عليه أن يكتب عن الديمقراطية والانتخابات التعددية. وظل عمار الحر ينتظر اللحظة التي تهز أعماقه فتدفعه للكتابة.

ولما أودع عبد الحكيم الوردي الحبس المؤقت، تألم عمار الحر كثيرا لحبسه ثم كانت اللحظة التي انتظرها مدة سنوات. وانفجر شيء غريب في داخله.. شعر برغبة قوية في الكتابة. لقد جمع كمية كبيرة من قصاصات الجرائد، ودوّن معلومات هامة في كناشه الأزرق ثم قرر أن يتصل بكل معارف الشاعر وأقاربه.. فالتقى أولا نصيرة التل التي أصبحت في نظره لغزا غامضا. أدهشته شخصيتها الغريبة وخشي

أن تصرفه عن مشروعه الجديد. لقد حركت في نفسه بعض الخواطر المحمومة. خاف من فتنتها المتوحشة.

ولما مر بحي "البساتين" القديم، تساءل عن بعض أبناء الحي الشعبي. أين هو "عبد السلام المنصور" الذي علمه الغطس في "البحيرة الميتة" وتخلي عنه ذات يوم في سد "برمادية" فكاد يغرق لولا تدخل السباح "محمد القط"؟ كيف جن هذا السباح الماهر؟ رآه أمس عاريا وهو يجري حول ساحة "السوق السوداء". تألم لمنظره العاري. و"أحمد محفوظ"، أين اختفى؟ وكيف أصبح إرهابيا؟ لقد انقطعت أخباره عن المدينة ولا أحد يعلم مصيره. والنجار "محمد المرقي"، هل هاجر إلى فرنسا وتزوج بفتاة من عائلة ثرية كما تزعم أخته الموظفة بمركز البريد الرئيسي؟ وكيف تمكن من الخروج من الجزائر؟ هل "حرق" كما يفعل الشبان الذين يغادرون البلاد في أجواف البواخر؟. ويتذكر جيدا اليوم الذي دلّه فيه "سعيد المناري" على أشجار البرتقال فسرق منها كمية كبيرة من البرتقال، وفي نهاية المطاف وقع بين أيدي حراس المزرعة الذين أشبعوه ضربا بعصي الزبوج.. وتألم عمار الحر وبكى بحرقة لاغتيال جارهم

"إسماعيل التل"، سائق الشاحنة. وقد علم بعد زيارة حديقة "الشجرة العملاقــة" أن المغتــال هــو عــم نصيرة التل.

وعند منعطف الشارع الرئيسي، ظهر له مسكن عائلته القديم الذي باعه والده لتاجر مواد غذائية من مدينة "زمورة". لقد اشترى والده قطعة أرض للبناء بحي "الانتصار" أقام عليها بيتا واسعا، أصبح يعيش فيه مع والدته التي لم تنقطع زياراتها لجيران حي "البساتين" النابض بالحيوية والذكريات الجميلة. والتفت عمار الحر يمنة ويسرة وهو يسوق سيارته الرمادية. جذبت انتباهه فتاة أنيقة خارجة من بيت قديم كانت جدرانه مطلية باللون البني، فأوقف سيارته وراح يتابع حركاتها الرشيقة. أين رآها؟.. آه من ذاكرته المثقوبة.

وخطرت بباله فكرة جريئة وهي أن يكلمها.. وأن يغازلها. وفي اللحظة التي أطلت فيها امرأة مسنة من نافذة البيت، انطلق بسيارته نحو الجهة الشمالية من حي "البساتين "ثم دار في أول زقاق قاصدا بيت ابن خالته الذي أطلق سراحه بعد سنة قضاها في سجن "مستغانم".. وقبل أن يقابله بيت عبد القادر الجميل

المحاذي لحقل البرتقال تردد قليلا ثم غيّر رأيه وعاد إلى الشارع الرئيسي للحي الذي فُتحت به محلات كثيرة لم يهتم بها قبل اليوم.. واخرج علبة السجاير من جيب سترته ثم أشعل سيجارة.. كان يريد أن يلتقي أي صديق من أبناء الحي أو أي زميل من زملاء المدرسة الابتدائية.. مازال الحي الشعبي يسكنه بذكرياته الجميلة. وراح يحملق في الوجوه التي كانت تكسو ملامحها مسحة من الحزن العميق.

وبعد دقائق طويلة من السير في الأزقة المحفورة، دخل حي "القرابة" ثم واصل طريقه نحو مكتبته الصغيرة. لقد ترك أمر فتحها وتسييرها للطفل "تذار الرمسي" الذي توقف عن مواصلة تعليمه. ونفث الدخان من نافذة سيارته المرهقة وهو يحلم بقضاء بعض الأيام على شاطئ "الرمال الذهبية".

-4-

ودار عمار الحر حول مركز البريد الرئيسي ثم اتجه نحو بناية السجن وهو يقول لنفسه: "سأتزوج فوزية".. ستفرح المعلمة المهذبة. وستزغرد أمه حتى يبح صوتها إذا ما أعلن عن رغبته في الزواج من فوزية العسلي.. وستخرس الألسنة الحادة التي تلوك سيرتهما بقذارة فالمرأة ومهما حققت من نجاح في المجتمع، سيظل مستقبلها في نظر جل الناس مرتبطا بالزواج وببناء أسرة كثيرة البنين والبنات. وزواجه سيضع حدا لكل الشائعات، وسيثبت به للجميع بأنه غير مسحور. لم يبق له وقت للعبث.. حتى فوزية العسلي التي كانت تثق فيه، تأثرت بكلام الناس وأصبحت تشك في إخلاصه لها. أقسم لها بأنه لا يحب غيرها. واقترح عليها ذات مرة أن ترافقه إلى وهران الباهية أو الجزائر العاصمة البهجة ولكنها رفضت اقتراحه خوفا من والديها وألسنة الناس الحادة ثم تساءل في حيرة: "ألا يمنعه التحضير للزواج من تحقيق مشروعه الذي شرع فيه؟" أوَ ليس "زواج ليلة تدبيره عام" كما يقول الناس؟ ثم أن الكتابة التي شرع فيها ستستغرق شهورا

طويلة. لقد حاولت فوزية العسلي أن تثنيه عن مشروعه الغريب الذي لن يجني منه أي شيء كما قالت له، واقترحت عليه أن يكتب عن شاعر معروف مثل مفدي زكرياء أو محمد العيد آل خليفة. وكانت بهذا الاقتراح تريد أن تصرفه عن الاهتمام بالشاعر عبد الحكيم الوردي وتبعده كذلك عن نصيرة التل المتهورة خوفا من وقوعه في فخ الفاتنة اللعوب. ولم ينصت إلى نصيحتها بل قال لها بأن صديقه شاعر كبير، وسيكتب عنه لينقذه من النسيان والضياع كما سيستغل الفرصة للكتابة عن التاريخ الثقافي للمدينة ورموزها الكثيرة ثم استطرد قائلا أن الكتابة وحدها هي التي ستحرره من ضعفه ومن هذا الفراغ الذي ظل يلاحقه كالظل اللعين.

ولماذا لم ينقذه حب فوزية العسلي من شعوره بالملل؟ إنه سؤال خطير حقا، وربما خطر ببال فوزية العسلي التي تخشى أن يتخلى عنها. لقد رغب في تغيير نشاطه المهني كما رغب في السكن بمدينة وهران ولم يفعل شيئا بل ظل ضحية للملل البغيض منتظرا أن يحدث ما يبث في نفسه الأمل والقدرة على العمل

والإبداع. وحين تحدثه فوزية العسلي عن البنات والبنين، يحرك لها رأسه ويغرق في صمت غريب.

فكر أن يتزوج بها مباشرة بعد تأليف الكتاب. إنه يخشى أن يمر الوقت ولا ينجز مشروعه إذا ما غرق في تفاهات الحياة التي لم يُخلق لها. عندما ألقي القبض على عبد الحكيم الوردي تأثر كثيرا واحتج أياما.. ولم يصدق ما تعرض له صديقه المتهم بجريمة القتل العمدي ولكن بعد حديث مطول مع حسين السعيد، اقتنع بأن محنة السجن ستكون أصعب تجربة يعيشها الإنسان في حياته.. وفي تلك اللحظة المؤلمة خطرت بباله فكرة الكتابة عن المتهم فتحمس لها بقوة.

وأوقف عمار الحر سيارته الرمادية في حظيرة مقهى العمارات الجديدة ثم نزل منها وقصد مؤسسة إعادة التربية وهو يضغط بأنامله المتشنجة على الرخصة الخاصة بزيارة صديقه المحبوس. ففي زياراته السابقة، وجد عبد الحكيم الوردي ساخطا على كل الناس. لم يتحمل صدمة القبض عليه وإيداعه الحبس المؤقت.. وقضى أياما طويلة وهو يردد كالمجنون: "أنا برئ.." ثم يصيح بعصبية : "أنا شاعر..

أنا كاتب".. لم يصدق ما جرى له. كان ينتظر كل يوم من يقصده ويطلب منه العفو على حبسه. وظن أن المثقفين والمبدعين والمعجبين بشعره وآرائه الجريئة سيجتمعون أمام مقر الولاية وفي ساحة "مينه"، وأمام مؤسسة إعادة التربية للمطالبة بالإفراج عنه. ولم يحدث ما تخيله. استيقظ على واقع غريب. إنه إنسان كالآخرين. نسيه جل الناس. عرف أن الشعر في هذا الزمن هو مجرد كلمات تكتب أو تلقى في المناسبات.

اليوم، أصبح متهما بقتل الأرملة الثرية وعليه أن يقاوم ضعفه حتى لا ينهار. وبمرور الوقت تعلم الصبر والانتظار، وغير رأيه.. وشعر برغبة ملحة في الحديث مع الناس، وأفضى لعمار الحر بوساوسه الكثيرة ومنها خوفه من الإقدام على الانتحار ثم قال له بأنه لم يفكر يوما في قتل أي إنسان فكيف يصبح متهما بمقتل الأرملة الطيبة؟

وابتسم له عمار الحر، ونصحه بالدفاع عن نفسه وبكل الوسائل المشروعة. وقرر عبد الحكيم الوردي التحدي بعد تلك اللحظة التي شعر فيها بأنه إنسان بسيط وفي حاجة إلى شجاعة كبيرة لمواجهة ضعفه أولا.

ولما دخل عمار الحر بهو السجن، وجد عبد الحكيم الوردي واقفا خلف الشباك وهو يدخن سيجارة. صافحه عمار الحر بحرارة ثم أمال رأسه نحو الجهة اليمنى من الشباك، وسأل عن أحواله فرد عبد الحكيم الوردي باسما:

- الحمد لله.. وأنت؟

وأضاف قائلا:

- أشكرك كثيرا.. هـل اطلعـت عـلى كراساتـي؟ مـا رأيك؟

شعر عمار الحر ببعض الحرج. ها هو صديقه يسأله عن رأيه في كتاباته قبل الحديث عن هموم الحبس والأخبار المتعلقة بقضيته.. بلا ريب استرجع ثقته بنفسه. رأى عمار الحر في عيني المتهم اهتماما متزايدا بمشروعه الذي سمع به كل معارفه قبل كتابة أي سطر عن عبد الحكيم الوردي. لقـد طلب المحبوس من والده أن يسلم لعمار الحـر كراساته الزرقاء التي كان يسجل فيها خواطره وذكرياته وبعض أشعـاره.

وصارحه عمار الحر قائـلا:

- لم أقرأ منها إلا بعض الصفحات.. كنت مشغولا..

وكاد يحدثه عن غضب فوزية العسلي التي هددته بقطع علاقتها به. وتابع قائلا بحزن:

- أخشى أن تبعدني هموم الحياة عن ممارسة الكتابة.

وتفرس عبد الحكيم الوردي في وجه صديقه المتعب ثم قال:

- واصل الكتابة.. لا تفشل.. سيأتي اليوم الذي ينصفك فيه التاريخ.

هز عمار الحر رأسه تعبيرا عن لامبالاته ثم وعد صديقه بمطالعة كراساته الزرقاء والتعليق عليها وأخبره بأنه اتصل بنصيرة التل. ووضع عبد الحكيم الوردي كفه اليمنى تحت ذقنه ثم قال له متنهدا:

- وقفت إلى جانبها وساعدتها على مواجهة بعض الصعوبات ولكنها مع الأسف تغيرت كثيرا.. أصبحت فتاة مخيفة.. إنها تكرهني..

وضحك عمار الحر ملء فيه ثم قال له بخبث:

- ومع ذلك، فكرت في الزواج بها؟

وثبت المحبوس نظاراته السميكة على عينيه الضعيفتين ثم قال بصراحة:

- كنت مخدوعا.. نصيرة فتاة متوحشة.. أفقدتني وعيي.. لقد حذرني منها زملاء العمل وأبناء الحي ولم أهتم بنصائحهم. قررت أن أتحدى الجميع. أردت أن أثبت لها قدرتي على مواجهة الأفكار البالية ولكنني فشلت.. كنت ساذجا.. كنت مخدوعا يا عمار. صراحة فشلت وندمت أيضا. لما علمت بعلاقتها المتوترة بعابد المحمود، أعدت النظر في قرار الزواج بها، وفضلت الانتظار وهذا ما جعلها تثور عليّ وتتهمني بالجبن والمكر.

وسكت وهو يحملق في وجه صديقه. بدا عبد الحكيم الوردي منشرحا.. لا ريب أنه استفاد من تجربة الحبس التي تعلم منها كيف يواجه نفسه والآخرين.. المواجهة!؟ تلك الكلمة التي سمعها من عمار الحر حين أفضى لها بمخاوفه من السجن والناس. ولم يفقه عبد الحكيم الوردي المعنى الحقيقي للكلمة إلا في ظلمة الحبس الموحش. واغتنم عمار الحر الفرصة فسأله عن علاقته بالأرملة التي كانت تكبره بسنوات عديدة، ومتى وكيف تعرف عليها وهي امرأة معروفة بالانطواء على نفسها.. ؟

ومرر عبد الحكيم الوردي يديه الناعمتين على رأسه الحليق ثم حرك نظاراته السميكة وكأنه يستعد لمطالعة كتاب مهم. وهل يستطيع أن يتذكر كل تفاصيل ذلك اللقاء الرائع؟ ولما شجعه عمار الحر بحركة من رأسه، ضيق عبد الحكيم الوردي عينيه العسليتين وقال له بأن الصدفة لعبت دورا هاما في علاقته بالأرملة الوحيدة.. ثم حملق في وجه عمار الحر الشاحب وكأنه يقول له ستعرف الحكاية التي حيّرت الناس. وتنهد قائلا لصديقه:

- بلا شك.. لقد تعلمت في السجن كيف تنظر إلى ماضيك.. إلى الأشخاص الذين تعرفت عليهم..

وشعر عبد الحكيم الوردي برغبة ملحة في الحديث عن علاقته بالأرملة الثرية..

.....

لقاؤه الأول بها لا يمكن أن ينساه.. كان بقاعة الحفلات التي دخلها لمشاهدة مسرحية برمجت بمناسبة الملتقى الوطني لمسرح الهواة. الصدفة أجلسته بجانب

المرأة التي كان عمرها يتجاوز الخمسين، غير أنها كانت تبدو بلباسها الأنيق أصغر من سنها الحقيقية.

وظل عبد الحكيم الوردي يتابع مشاهد المسرحية باهتمام كبير، ولما ألقى أحد الممثلين شعرا عن الثائر سيدي "الأزرق بلحاج"، تحركت المرأة الأنيقة في كرسيها وقالت كالمعترضة:"هذا الشاب يجهل كل شيء عن سيدي الأزرق بلحاج وتاريخ مقاومته الباسلة".. ثم تنهدت قائلة بأسى : "إنه معذور.. الذنب ذنب الكبار".

وأثار تعليقها اهتمام عبد الحكيم الوردي الذي أحس أن المرأة تعرف ما يجهله الكثيرون.. والتفت نحوها وسألها إن كانت تعرف الثائر سيدي الأزرق بلحاج فابتسمت قائلة له بأنه زعيم ثورة سنة 1864 المعروفة بثورة "فليته" والتي عمت زمورة، وتلول منداس، والرحوية، وعمي موسى، ومرتفعات الونشريس، وغليزان، وحوض مينه، ووادي ارهيو، وسهل الشلّف السفلي، وراحت تحدثه عن رجال المقاومة المنفيين خارج الوطن، وعن زيارة نابليون الثالث لمدينة غليزان في صيف 1865 وكيف استقبله سكان المنطقة بمظاهرة شعبية نجا منها الإمبراطور بأعجوبة. وكاد

عبد الحكيم الوردي أن يصرخ فرحا. حقا، لقد أبهرته المرأة الأنيقة بمعرفتها لتاريخ المنطقة. أنصت لها باهتمام كبير حين تكلمت عن معركة "فرطاسة" التي ذكرها نفس الممثل الشاب وأسمعته أبياتا من قصيدة الشاعر بوعلام بن الطيب السجراري الذي سجل فيها أحداث معركة "فرطاسة" الخالدة.

ولما اخبرها بأنه يقرض الشعر سألته إن كان يحفظ قصائد الشعراء القدامى من أبناء المنطقة وضواحيها فأجابها بأنه مطلع على دواوين كثيرة لشعراء يكتبون باللغة الفصحى فقط ولكنه لم يهتم أبدا بالشعر الشعبي وفحوله.. واغتنمت زينب الهنيدي الفرصة فحدثته عن الشاعر "سعيد المنداسي" و"ابن سويكت السويدي" وسيدي "لخضر بن خلوف".. وذكرت له شعراء آخرين من بينهم "عبد القادر الخالدي" و"محمد بلفوضيل".. ولما قدم لها نفسه، تجلى الاهتمام على قسمات وجهها الحزين وقالت له بأنها تعرف جيدا عائلته الكبيرة التي شردها الاستعمار الفرنسي وروت له كيف نزحت مع عائلات أخرى إلى المدن المجاورة بعد تساقط قنابل المدافع على عرش "دار سيدي بن عبدالله" الذي أُحرقت

أكواخه ودُمرت دياره ومشاتيه.. ثم ساد بينهما صمت مشحون بالمشاعر النبيلة. وتمنى عبد الحكيم الوردي أن تواصل المرأة الأنيقة حديثها عن شعراء الملحون وتاريخ المنطقة.

وحاول أن يسألها عن هويتها ولكنه وجد نفسه مرغما على الصمت الذي فرضته عليه.. وانصرف انتباهه إلى خشبة المسرح وتابع أداء الممثلين الشبان الذين انقسموا في المشهد الأخير إلى فريقين: الأول يطالب بالتعددية والديمقراطية وحرية التعبير لإخراج البلاد من كل الأزمات.. والفريق الثاني يشترط توفير الاستقرار وإشاعة ثقافة الحوار قبل التفكير في الديمقراطية وممارسة التعددية السياسية.

وانتهت المسرحية وكل فريق ينادي بضرورة الوحدة والعمل لمواجهة تحديات المرحلة القادمة في ظل الوحدة والوئام والاستقرار والعدالة الاجتماعية.

كان المستوى الفني للعمل المسرحي ضعيفا رغم اجتهاد مؤلف المسرحية في استغلال تاريخ المنطقة ورموزها التاريخية. وكان حضور عبد الحكيم الوردي لتشجيع فرقة "هواة المسرح" التي قدمت له دعوة

خاصة وطلبته منه تقييم إنتاجها الجديد والكتابة عنه في الجرائد اليومية.

وعندما وقف المتفرجون مصفقين بحرارة لأعضاء الفرقة المسرحية، التفت عبد الحكيم الوردي نحو زينب الهنيدي وسألها بجرأة لم يعهدها في نفسه، عن اسمها وعنوان بيتها. فابتسمت له، وغمغمت بصوت لا يسمع: "اعتذر"، وأسرعت الخطى نحو باب القاعة المفتوح على مصراعيه.

كانت الساعة تشير إلى السادسة مساء لما تحرك عبد الحكيم الوردي نحو جهة المسبح البلدي. تبع المرأة الأنيقة إلى أن رآها تدخل فيلا فخمة بحي "تلمينه".

ورجع إلى بيته مشغولا بأمر المرأة الحزينة التي أثارت إعجابه الكبير، وسحرته شخصيتها العجيبة.

أحبّها.. شعر بأنه أصبح من ضحايا "الحب من أول نظرة".. هذا الحب العجيب الذي تتحدث عنه القصص والمسلسلات المدبلجة.

قضى جزءا كبيرا من الليل وهو يفكر في حديثها الشيق الذي ينم عن حبها للشعر والتاريخ.. وحاول أن يتخيل ملامح وجهها الهادئ ولكنه فشل في ذلك. وظل

صوتها العميق يرن في مسمعه. من تكون هذه المرأة العجيبة؟ وفي اليوم الموالي، عرف من أبناء حي "تلمينه" أنها أرملة ثرية واسمها زينب.. وقد اتهمت بقتل زوجها الثري. وكانت الساعة السادسة مساء لما دق باب الفيلا. استقبلته الأرملة الأنيقة ببرودة قاتلة واجهها عبد الحكيم الوردي بابتسامة خجولة.. ولما سألته عن سبب زيارته المفاجئة، اعتذر لها ولكن بعد أسئلة أخرى طرحتها عليه أجاب قائلا بخجل: "أردت أن أحدثك في أمر ثقافي".. وفتحت له الباب وأدخلته الصالة الفسيحة فجلس على الكنبة المريحة، وجلست هي بدورها على كنبة أخرى ثم سألته بحذر: "وماذا تعني بالأمر الثقافي؟".. فرد عليها بصراحة ورجاء: "أنت امرأة طيبة وتحبين الثقافة والشعر.. وأنا شاعر، ولي أكثر من ديوان ولكن لم أجد مالا لأطبع على نفقتي أي ديوان من مخطوطاتي الكثيرة.. فأنا موظف بسيط ومرتبي الشهري متواضع جدا.. لهذا لجأت إليك لأنك تعرفين قيمة الشعر وتقدرين أصحابه. نعم.. قد تتعجبين من طلبي هذا ولكن ثقتي فيك كبيرة لذا قصدتك راجيا منك مساعدتي على طبع أحد دواويني".

وتنفس بعمق. شعر بالخجل يستولي عليه. تصبب جبينه عرقا. لم يقل لها ما كان يختلج بقلبه المرهف.

آه .. لـــو كانت له الجرأة لعبر لها عن إعجابه بها ولكنه خاف أن تطرده. نهضت زينب الهنيدي وقالت له متعجبة : "أنت شاب حالم حقا.. ألا تعلم أن الناس في هذا الزمن لا يهتمون بالشعر؟".. وابتسمت له بطيبة ثم واصلت قائلة : "بل أصبحوا يسخرون من كل إنسان يقضي وقته في البحث عن الكلمات.. ألا تعلم ذلك؟".. وأجابها بحماس وثقة : "أنا لا يهمني رأي الناس.. ولو عمل العباقرة والمفكرون بآراء معاصريهم لما تغير العالم وتطور نحو الأفضل".. وضحكت الأرملة الثرية ملء فيها ثم طلبت منه ألا يتحرك حتى تحضر له الشـــاي.

وفي زيارات أخرى، عرف عبد الحكيم الوردي قصة هذه الأرملة التي عانت كثيرا. شعر نحوها بعاطفة ملتهبة استولت على قلبه كله. أحبها بقوة.

سحرته بكلامها اللطيف وبعينيها الواسعتين. كانت تكبره بعشرين سنة أو أكثر. وأخفى سر هذا الحب الهادئ عن نصيرة التل وعن كل الزملاء والأصحاب

ولكن لا سر يخفى بين الناس. وبعد أسبوع أو أقل من زيارة فيلا حي "تلمينه"، علمت نصيرة التل بعلاقته بالأرملة الثرية. في البداية، استقبلت الخبر بالسخرية والنقد اللاذع ولامته على زياراته للفيلا، وحذرته من الأرملة المنبوذة وألسنة الناس الحادة، وأمام لامبالاته شنت عليه هجوما قذرا. اتهمته بالطمع والشذوذ وأصبحت تنعته بكل الصفات القبيحة فاتسعت الهوة بينهما. ولم يصده هجوم نصيرة التل عن زيارة الأرملة التي طلب منها الزواج فرفضت. وترجاها مرارا أن تقبل به زوجا، مؤكدا لها قدرته الكبيرة على مواجهة كلام الناس فنصحته زينب الهنيدي بالتريث والصبر فتظاهر بقبول نصيحتها منتظرا موافقتها على الزواج.

ولما عبرت له عن استعدادها لطبع ديوانه الشعري، رد عليها قائلا: "ليس قبل يوم عرسنا". ولكن المجرم لم يرحم حبهما. قتل زينب الهنيدي، ودمر شيئا ثمينا في ذاته الحائرة. كانت الصدمة عنيفة.. لم يتحملها عبد الحكيم الوردي الذي داخ وهو يواجه التهمة الخطيرة.. فجأة، أصبح مجرما.. أنت قاتل.. أين هي الأموال والحلي؟ لقد شاهدوك وأنت تخرج من الفيلا الخضراء.

" تكلم يا رجل.. وهل كنت تنوي حقا الزواج بها؟ تكلم قبل فوات الأوان. كاد يجن. قال لهم : "لست مجرما.. أنا شاعر". وحين دخل السجن فكر في الانتحار.. بكى بحرقةٍ وطلب النجدة. وبدأ تجربة جديدة لم تخطر بباله، عرى فيها نفسه وكتب عدة قصائد فكر أن يجمعها في ديوان جديد يتصدره إهداء مميز إلى روح زينب الهنيدي.. وكتب كذلك بعض الخواطر عن معاناته في السجن. لم تمنعه الهموم وظروف السجن من الكتابة التي أنقذته من الجنون والانتحار.

نسي دعوته إلى مذهب "التغيير الجذري" وهواجس الحداثة. لقد اكتشف في السجن واقعا آخر. البارحة فقط، انزوى في ركن القاعة وكتب عن اللحظات التي دخل فيها السجن. كانت لحظات قاسية تركت في نفسه ذكريات أليمة لن ينساها أبدا، ولكنها ألهمته قصيدة مشحونة بالعواطف الملتهبة.

.....

وابتسم له عمار الحر قائلا بفرح :

– ستخرج من السجن بتجربة هامة"..

ومرر عبد الحكيم الوردي يمناه على وجهه وهو يقول أن السجن غيّره كثيرا، وبعد خروجه منه لن يعود إلى هموم عمله السابق. إنه لا يريد أن ينحصر حلمه في وظيفة مملة. ففي الزنزانة، تحرر من الخوف ومن كل الأفكار الجوفاء. سيهرب إلى الجزائر العاصمة أو مدينة وهران. قرر أن يدخل عالم مهنة المتاعب.

سيصبح صحافيا.. وسيخوض المغامرة مهما كان الأمر. وصافحه عمار الحر بحرارة وهو يقول به بسرور خفي:

- بهذه الثقة ستخرج من السجن منتصرا..

وابتسم عبد الحكيم الوردي قائلا:

- وسأكتب عن هذه المحنة..

-5-

خرج عمار الحر من بهو المؤسسة العقابية ثم سار بخطى متثاقلة نحو سيارته الرمادية.. كانت السماء صافية. تمنى لو تهطل الأمطار بغزارة في هذا الصيف المقرف حتى تغتسل المدينة المتوترة الأعصاب من بعض الهموم والآلام العميقة، وتعود الابتسامة على الوجوه الحائرة. إنه يحب الأمطار ولسبب لا يعلمه، وركب سيارته الرمادية وانطلق بها نحو مكتبته. فجأة، انفجرت في ذاته ينابيع الحنين إلى الكتابة فاستحوذت عليه رغبة جامحة في تسجيل خواطره المحمومة.. وخاف أن ينسى كل الكلمات التي تفوه بها عبد الحكيم الوردي في لقاء هذا اليوم المتميز. سيخصص بعض الوقت لقراءة الكراسات الثلاث. وسيشرع الليلة في الكتابة ولن يتوقف عنها حتى ينهكه التعب. بلا ريب، إن الكتابة عن صديقه الشاعر ستخرجه من المجهول.. وسيصبح معروفا بين كتّاب الجزائر. تأسف حين اطلع على قاموس الكتّاب والجزائريين ولم يعثر فيه على اسمه: لم يهتم صاحب القاموس بكتابه المنشور الذي نال عنه جائزة وطنية.. وربما لأنه لا يدور كالآخرين

في محيط "صاحب القاموس".. تبا للمحاباة.. ولكن سيأتي اليوم الذي يذكره كتّاب آخرون، وسيهتم به كل النقاد إذا ما نجح في تأليف كتابه الجديد. سيكون أسعد مخلوق لو ينهيه في هذا الصيف.

آه من هذا الملل الذي دمر قدرته على التأليف. حزن على أيام الشباب التي لم يستغلها في الكتابة كما نصحه أحد الكتّاب المشهورين. قال له ذلك الكاتب المبدع: "يا عمار.. اكتب واكتب واكتب.. لا تفكر في الجودة.

ستأتي فيما بعد. فالتفكير المستمر في الجودة قد يفقدك الرغبة في الكتابة.. الجودة تتحقق بالعمل المتواصل.. فاكتب يا عمار ولا تنصت إلى كلام الحساد والفاشلين والمتشائمين.. أنت رجل موهوب فلا تفشل. واصل الكتابة وسيأتي اليوم الذي تتعجب فيه من قدرتك الهائلة على الكتابة والإبداع".

ودار بسيارته الرمادية في اتجاه الشارع الكبير الذي احتلت أرصفته مناضد المقاهي الحديدية وكراسيها البلاستيكية البيضاء والوردية. تذكر موعده بفوزية العسلي. ستزوره بمكتبته وستحدثه كالعادة عن ضجيج تلاميذها، وملاحظات مديرها العصبي، وتصرفاته

المتهورة ثم تروي له كيف قضت وقتها في البيت مع أختيها "ربيعة" الموظفة و"نوال" الطالبة قبل أن تغرق معه في حديث مضطرب عن الزواج الذي تخشى في قرارة نفسها ألا يأتي موعده. لماذا لا يتزوج ويخصص وقته كله للكتابة؟.. وهل يجرؤ على قطع علاقته بفوزية العسلي؟ لماذا لا يبحث عن فتاة أخرى لا يهمها أمـــر الزواج؟.. ثم سب نفسه ولامها علـــى هـــذا التفكيـــر السخيف.

وحين توقف بسيارته أمام مكتبته جرى نحوه الطفل نذار الرمسي الذي أخبره أن حسين السعيد سأل عنه ثلاث مرات. وفكر عمار الحر في شراء هاتف محمول، وهو يدخل المكتبة ثم طلب من نذار الرمسي أن ينصرف بعدما قدم له ورقة صغيرة تتضمن مبيعات الجرائد. واتجه الطفل فرحا نحو غابة صنوبر "الزنين" لاصطياد العصافير المغردة التي كان يبيعها يوم الجمعة بساحة "السوق السوداء". وجلس عمار الحر على الكرسي الخشبي ثم اخرج من جيب سترته قلما ووضع أمامه بعض الأوراق البيضاء ثم تنهد تنهدة حارة وغرق في دوامة أفكاره المضطربة. وظل يبحث

عن الكلمة التي سيبدأ بها الفصل الجديد من كتابه. وبعد لحظات طويلة من الانتظار، التفت خلفه واختار ديوانا للشاعر "رامبو" فتصفح أوراقه الصفراء وشرع في قراءة إحدى قصائده بصوت هامس ثم وضع الكتاب جانبا وعاد إلى الأوراق البيضاء.

وقبل أن ينهي كتابة فقرة قصيرة، دخلت فوزية العسلي المكتبة وهي تحمل محفظتها الجلدية. كانت ترتدي الفستان الأخضر الذي ظل يذكره بعودته النهائية من ورشات "حاسي مسعود" البترولية.

وقفت أمامه واجمة. ووضع عمار الحر أوراقه في درج المكتب الخشبي، وأشار إليها أن تجلس قبالته ولكنها ظلت منتصبة قرب الباب.. ابتسم لها قائلا بلطف:

– ما جرى؟ الدنيا مازالت بخير..

فردت عليه بعصبية:

– فكرْ جيدا.

وقفز عمار الحر واقفا ولكنه ظل منتصبا خلف مكتبه الخشبي ثم قال لها بتحد:

– لقد فكرت كثيرا.

وأضاف قائلا:

- إنك قلقة جدا..

وحدجته فوزية العسلي بنظرة حادة ولم تنبس بكلمة.

وتنهد عمار الحر ثم سألها بحنق:

- ماذا تريدين؟

واحتضنت فوزية العسلي محفظتها الجلدية السوداء ولم ترد عليه.

احتقن وجهها الجميل بالدماء، وغشيت الدموع عينيها السوداوين الحزينتين. تألم. ضرب المكتب الخشبي بيمناه ولم ينطق بكلمة. وبكت فوزية العسلي في صمت. حاول عمار الحر الاقتراب منها ولكنها ابتعدت عنه قليلا وهي تمسح دموعها بكفها اليمنى ثم خرجت من المكتبة ماسكة المحفظة بيسراها. طلب منها أن تنتظره ثم جرى نحو الباب وهو يترجاها أن تتوقف ولكنها لم تلتفت إليه.. وظل عمار الحر جامدا على عتبة المكتبة إلى أن اختفت فوزية العسلي خلف بناية الحمام الشعبي.. وردد بسخط :

- مجنونة.. مجنونة"..

وعاد إلى كرسيه الخشبي ثم ادخل يمناه في جيب سترته باحثا عن علبة السجاير. وسب فوزية العسلي الهاربة منه ثم لام نفسه المتخاذلة. لماذا لا يغادر المدينة؟ ولكن إلى أين؟ وكيف سيؤلف كتابه؟ ثم أجاب نفسه قائلا: "سأكتبه في أي فندق من فنادق وهران أو الجزائر العاصمة". ولماذا لا يجرب ذلك؟ ثم أشعل سيجارة "أفراز" وراح يدخنها بعصبية. شعر بأن الوقت يخادعه رغم إصراره على الكتابة. لقد قرر أن يتحدى ضعفه.. وجلس على الكرسي الخشبي ثم اخرج أوراقه من درج المكتب الخشبي وشرع في الكتابة..

-6-

تمدد عمار الحر على سريره ثم شرع في مطالعة الكراسة الأولى التي تصدرها البيت الأول من لامية العرب للشاعر الشنفرى*:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم

فأني إلى قوم سواكم لأميل.

لقد ألقى هذا البيت في نظر عمار الحر، بعض الضوء على نفسية عبد الحكيم الوردي الذي كان يعيش غربة قاتلة.. وكانت فرحة عمار الحر عظيمة حين اطلع على الجزء الذي كتب فيه عن زينب الهنيدي وسجل أيضا رأيه الجريء في المرأة ومكانتها في مجتمع يتطور بسرعة مذهلة واهتم كثيرا بقصة الأرملة التي ولدت في دوار "العين الصافية".. فوالد جدها كان من بين وفد قبيلة "قليته" التي بايعت الأمير عبد القادر وقد استشهد في معركة "كاف العار" أي بعد أيام فقط من مقتل مصطفى بن إسماعيل عام 1843 في منطقة دار سيدي بن عبد الله. وشارك جدها عدة الهنيدي المدعو "عدة الصنديد"، في ثورة سيدي الأزرق بلحاج، وبعد إلقاء القبض عليه نُفي إلى كورسيكا وعاد إلى

عرشه بعد سبع سنوات من الأسر والغربة عن الجزائر، ويذكر بعض مشايخ المنطقة أنه توفى قبل الحرب العالمية الأولى ودُفن في مقبرة سيدي عبد القادر الجيلالي.

أما والدها "الميلود" فقد قتله المعمر "جاكومو" بطلقة رصاص.. وكثرت الأقاويل حول سبب قتله. كان ذلك بعد أحداث 1948. وقد أشاع المعمر أن

الميلود الهنيدي حاول الاعتداء على زوجته "جنيت الشقراء". ولم يصدقه سكان الدوار الذين كانوا يعرفون الميلود جيدا. كان الرجل مشهودا له بالتقوى ومحبة الصلحاء والعلماء والمشايخ. ولما استولى المعمر على قطعة الأرض التي كانت تملكها عائلة الهنيدي، عرف الناس السبب الحقيقي لمقتل الميلود. واضطرت "حليمة الهنيدي"، والدة زينب للعمل في ضيعة عبد العزيز الفلاح ولكن القدر لم يمهل الأرملة المسكينة فوجدت ميتة في يوم قائظ على ضفة وادي "مناصفة". وسمعت زينب أن حية سامة لسعت والدتها التي كانت تحمل برميل ماء جلبته من ينبوع الوادي وهي تمشي حافية القدميــن.

وعاشت زينب عند خالتها "فاطمة" زوجة شيخ الزاوية. وفي أجواء هذه الزاوية العريقة، تعلمت زينب شكل الحروف والكتابة على لوحة مصنوعة من شجرة العرعار.. وحفظت سورا كثيرة من القرآن الكريم، واستمعت باهتمام كبير لحديث الشيخ "الحاج المنور" عن سير الأولياء الصالحين وأبطال المنطقة ورجال المقاومة الشعبية، وعن بعض التواريخ المحلية كما حفظت بعض الأشعار التي كان يرددها شيوخ الغناء البدوي ومنهم الشيخ "حمادة" والشيخ "المدني". وتزوجت زينب الهنيدي وعمرها سبع عشرة سنة.. وعاشت مع زوجها "الحبيب الخماس" في سعادة غامرة. كان حلمها أن يرزقها الله بولد تسميه "الميلود" غير أنها أنجبت صبية بهية الطلعة سمتها حليمة ولكن زوجها لم يكن راضيا عن ميلاد الصبية وقد عبر لها عن ذلك ثم طلقها وتزوج من "رقية" خادمة الحاج "أحمد الزناتي"..

وفي اليوم الذي حرق فيه عسكر فرنسا أكواخ دواوير "الجبل الأخضر" ومنها كوخها المتواضع، تركت زينب الهنيدي ابنتها حليمة عند خالتها فاطمة،

وغامرت صوب المدينة التي لم تفكر أبدا في زيارتها.. ودخلت مدينة "غليزان" وبيمناها صرة ملابسها البالية.

جلست أمام محطة القطار وهي تبحث في قلق عن حل ينقذها من الضياع في شوارع المدينة. ومن حسن حظها أن "بوعلام الشطار"، صاحب عربة الحمص، تصدق عليها برغيف وقطعة جبن ثم دعاها للمبيت في بيته. وبعد أيام تزوجها. وسكنت معه في البيت الطيني الذي بناه على طرف حي "البحيرة الميتة".

وفي المدينة، وجدت الحياة التي لم تخطر ببالها فتعرفت على أشياء كثيرة ومن أهمها الحمام الذي كانت تقصده كل أسبوع رفقة جارتها "عوالي الخطابي". وبعد وفاة زوجها في حادث سيارة وهو عائد من وهران رفقة أخته "خروفة"، وجدت نفسها وحيدة في مواجهة الحياة القاسية ولكن "زهور القايمة" العاملة بمصنع النسيج، شجعتها على الخروج من البيت وقد ساعدتها في إيجاد منصب عمل بشركة النسيج فأصبحت كزميلاتها تنتظر كل صباح حافلة النقل أمام محل قـــدور القناش.

وفي الفصل الثالث من الكراسة الثانية، عرف عمار الحر كيف أصبحت زينب الهنيدي أرملة ثرية. لقد اتصلت بها زهور القايمة رئيسة ورشتها، وأخبرتها عن رغبة الحاج قدور القناش في الزواج منها. وقبلت زينب الهنيدي أن تكون زوجة لتاجر يكبرها بسنوات عديدة فتخلت عن عملها بمصنع النسيج وانتقلت إلى فيلا حي "تلمينه". وبعد انقضاء شهر العسل، علمت أن زوجها كان قد طلق "راضية" بسبب خيانتها الزوجية وكاد يقتلها لما علم بحملها. وتبرأ التاجر الثري من الجنين فوجدت راضية نفسها منبوذة من طرف الجميع.. وبعد الطلاق، لجأت إلى حي "البحيرة الميتة".. وأصبح بيت راضية محلا لبيع الملابس النسوية المستوردة.. وتمنت راضية الاستقرار في الحي الشعبي حتى تجمع المال الذي يسمح لها بشراء شقة في العمارات المقابلة للفيلا الخضراء ولكن ابنها سليم الذي ولد وترعرع في حي "البحيرة الميتة"، جلب لها المشاكل المعقدة. لقد أصبح مدمنا على شرب الخمور كما قام بأعمال مخلة بالحياء جندت ضده كل سكان الحي الشعبي، وخاصة لما اعتدى على طالبة

معوقة فاضطـــرت والدتـــه بعد بكاء مـــــر إلـــى مغـــاذرة الحي.

وانهمك عمار الحر في مطالعة الصفحات المتعلقة بتهمة زينب الهنيدي بقتل زوجها بالسم. لقد اثبت التحقيق بالأدلة القاطعة أن المجرم الذي وضع السم في كأس قدور القناش، كان شريكه في تجارة الحلي ويدعى "علي الطاروس". وقرأ فقرة مؤثرة عن حزن الأرملة الثرية التي فقدت في أيام محنتها ابنتها الوحيدة حليمة الصغيرة. وكتب عبد الحكيم الوردي خمس صفحات عن الأرملة الثرية وذكر أنها تملك حسا مرهفا وقلبا عامرا بالمشاعر النبيلة ولهذا شعر نحوها بالحب الصادق.. وذكر بأنها امرأة طيبة سحرته شخصيتها المتميزة.

ووضع عمار الحر الكراسات الثلاث جانبا، وقفز واقفا ثم جلس أمام مكتب غرفته ومسك بالقلم وكتب في الورقة المبسوطة أمامه: (هل كان الشاعر الوردي صادقا في حبه للأرملة الثرية؟ ألم يكن طامعا في أموالها الطائلة فقط؟ ولماذا رفض أن تطبع له ديوانا كما كان يرغب في ذلك؟). وتوقف عن مواصلة

الكتابة. وهل من اللائق أن يشك في صديقه الشاعر؟ إنه يعرفه جيدا.. ولمَ لا يشك فيه؟ أليس من حقه ككاتب أن يطرح الأسئلة الصريحة التي ستمكنه من سبر أغوار نفسية عبد الحكيم الوردي؟ إنه صديق. ولكن يجب ألا تمنعه هذه الصداقة من قول الحقيقة التي تتطلبها الكتابة الصادقة. وقلب الورقة المكتوبة بين يديه. شعر بحزن عميق. تذكر مصير عبد الحكيم الوردي. فهل ينجو من عقوبة السجن؟ منعه السؤال المحيرْ من مواصلة الكتابة. وضع الورقة في ملف أصفر وعاد إلى سريره. تمنى أن ينام نوما هادئا.

أصبح في المدة الأخيرة، ضحية للوساوس المخيفة والكوابيس المفزعة. البارحة فقط، وجد نفسه في حقل مغروس بأقلام حبر لها رؤوس الأفاعي السامة وأرجل الوحوش المفترسة، وقد حاول الفرار منها ولكن الأفاعي المخيفة حاصرته من كل الجهات فلم يجد أية قدرة على الهرب أو الصراخ. اختنق. فتح فاه واستسلم للأقلام الشرسة.. الأقلام-الأفاعي. ثم ألقى بنفسه في ـسو هوة سحيقة. وأخيرا صرخ.. وكانت الصرخة . عبة. خفق قلبه بقوة. ازداد صراخه. قيد الرعب كل

حركاته. حاول البكاء ولم يذرف دمعة واحدة.. فتح فاه وانتظر الموت بسموم الأفاعي.. ثم استيقظ مختنقا.

شعر بصداع حاد وهو يلتفت يمنة ويسرة.

وحين روى لحسين السعيد ما حدث له البارحة، شعر عمار الحر بأنه تعرى أمام صديقه الذي قال له بأنه أصبح ضحية لشعوره الحاد بالعجز عن الكتابة.. وهل أصبح عاجزا حقا؟ لا. ألم يكتب اليوم فقط، ثلاث أوراق كاملة عن اليوم الذي تعرف فيه عن الشاعر عبد الحكيم الوردي؟ لا. لن يكسر القلم. سيثبت للجميع بأنه لم يمت ومازال قادرا على ممارسة الكتابة.

-7-

قرر عمار الحر ألا يخرج من البيت حتى ينهي الفصل الثالث من مشروعه الجديد. استطاع فعلا أن يتغلب على رغبته في الذهاب إلى شاطئ "الرمال الذهبية" لمدينة مستغانم. كتب أربع أوراق من الحجم الصغير عن عائلة عبد الحكيم الوردي.. تحصل على جل المعلومات من والدة المتهم التي لم تُصدق ما جرى لابنها وقد عبرت لعمار الحر عن مخاوفها ويأسها من خروج ابنها من السجن. وقالت له باكية: "يا عمار.. ابني بريء وأنا متأكدة من ذلك. إنه لا يتحمل حتى رؤية دجاجة وهي تذبح فكيف يقتل امرأة وبخنجر؟ هذا أمر مستحيل". كاد عمار الحر أن يبكي وهو يراها تضرب صدرها الذابل بيديها المرتعشتين وتردد بألم: "ابني بريء.. ابني بريء.."

وحين همّ بالكتابة من جديد، سمع طرقا متواصلا على الباب الخارجي وانتظر لحظات قبل أن يسمع صوت صديقه النائب. ونهض عمار الحر ثم سار نحو الباب الخارجي. لم يزره حسين السعيد إلا لسبب هام.. فرغم المهمة النيابية التي أثرت على لقاءاتهما إلا أن

السعيد لم ينس زيارة عمار الحر في بعض الأوقات المهمة وخاصة في فترة الاستحقاقات والمواعيد السياسية وفي كل المناسبات العائلية. وكان عمار الحر يجد في تلك الزيارات فرصة للحديث عن المشاكل والقضايا الوطنية أو للتعبير عن مواقفه من الأحداث الهامة.

وفتح عمار الحر الباب فرحا بصديقه النائب الذي بدا له أنيقا في بدلته الجديدة ثم دعاه لدخول الصالة الفسيحة وقال له باسما:

- تغيرت كثيرا يا حسين.. أصبحت "جنتلمان".

ووقف السعيد قرب الكنبة الجميلة وأشار إلى صديقه بالسكوت ثم قلب يديه في الهواء وكأنه يقول له أنه يحمد الله على نعمه الكثيرة ثم جلس على الكنبة المريحة وهو يقول بصرامة:

- جئت لأحدثك في أمر هام. أنت تعلم أن الانتخابات القادمة ستكون صعبة.. فالأحزاب تستعد لمواجهتها ولهذا فكرت في ترشيحك للانتخابات التشريعية. ما رأيك يا أخي؟

ومرر عمار الحر يمناه على وجهه الحليق بعدما جلس على الكنبة، واقترب من صديقه الذي فاحت من بدلته الأنيقة رائحة زكية ثم أشعل سيجارة "أفراز"، وراح ينفث الدخان بمتعة كبيرة. فرغم الحيوية الكبيرة التي أحدثتها التعددية السياسية، لم ينخرط عمار الحر في أي حزب أو جمعية. كان أمله الوحيد محصورا في تحقيق مواطنته وممارسة حريته كما ظل يحلم بتأليف كتاب يثير اهتمام النقاد والقراء.. وقرأ يوما في إحدى الجرائد، أن رئيس دولة أوربية تمنى لو كان كاتبا فشعر عمار الحر بالزهو وردد هذا الكلام على والدته التي سخرت منه لما حاول إقناعها بأهمية الكتابة بل لامته على اهتمامه بالكتب والأوراق وحذرته من تأثيرها السيئ على قواه العقلية ثم قالت بغضب: "كن مثل حسين ولد لخضر السعيد.. لقد أصبح شخصية مهمة".. فثار قائلا بعصبية ونرجسية: "وأنا أيضا شخصية مهمة وأكثر.. أنا أفضل من هؤلاء الذين يطلون عليكم من التلفزة ولكن الناس في هذا الزمن لا يحبون إلا المظاهر التافهة".. وكان عبد الحكيم الوردي في الماضي القريب يشجعه على الكتابة وهو يقول له:

"الكتابة هي الحياة العميقة فأنا إذا لم أكتب أشعر بالتفاهة الممزوجة بالألم كما أجد نفسي فجأة في مواجهة الفراغ المخيف.. وقد انتحر إذا ما اقتنعت يوما بعجزي النهائي عن الكتابة". اليوم وقد استعادت البلاد عافيتها، أصبح عمار الحر لا يفكر إلا في كتابة سيرة شاعر موهوب يعيش في مدينته العريقة.. وسيخلد بكتابه مدينة "غليزان المحمية" كما كان يسميها الشيخ "علي اليحياوي" الذي ترك بعد وفاته مخطوطا سجل فيه بعض المعلومات عن صلحاء منطقة غليزان وأنساب بعض عائلاتها المعروفة.

لا.. لن يضيّع وقته في الصراعات السياسية التي تشتد حدتها كلما اقتربت مواعيد الانتخابات. لقد نصحه كاتب معروف بالثبات أمام إغراء مناصب المسؤولية، وقال له ذات مرة أن الثقافة في حاجة إلى تضحيات كبيرة ولكن عمار الحر الذي لا يطمع في أي منصب من مناصب المسؤولية، لم يكتب منذ مدة طويلة. لم يستطع أن يكتب رسالة واحدة إلى صديقه المهندس منور القاضي.. وبمرور الوقت ازدادت حيرته. وكان إذا عثر على أي موضوع صالح للكتابة، يشعر فجأة

بالملل والعجز ثم يغرق في مقارنة نفسه بالكتّاب الآخرين فيضع نفسه في مستوى دون مستواهم، وإذا اجتهد وطاوعه القلم وكتب بعض الفقرات فإنه لا يلبث أن يمزق الأوراق المسودة ثم يحكم على نفسه بالعقم.. وكان يرجع سبب عجزه عن الكتابة إلى وضع البلاد وانعكاساته وإلى كلام والدته المتشكية منه ولوم فوزية العسلي المتشككة في علاقتهما. ولم ينس تجاربه السابقة. لقد شرع في إنجاز أعمال كثيرة لم ينته من كتابتها وبمرور الوقت عرف أن عدوه اللدود هو التردد القاتل. لقد قرر أن يتحدى نفسه بالكتابة فقط. إنه يحن إلى الأوراق التي يريدها أن تصبح حبلى بالكلمات الجميلة. فرح: ها هو أمل الكتابة ينعش روحه من جديد وقد شرع فعلا في تأليف كتابه الجديد.

وحاول حسين السعيد في الماضي القريب، أن يقنع عمار الحر بضرورة المساهمة في الحياة السياسية فقال له إنه تعرف في البرلمان على كتّاب ومثقفين يمارسون السياسة ويناضلون في الأحزاب وأضاف قائلا له بصدق: "لا يمكن للمثقف أن يعرف أهمية أفكاره إلا إذا احتك بالواقع واسهم بفعالية في حل المشاكل

المطروحة". ورد عمار الحر أن السياسة بحر مضطرب لا يركبه إلا المغامرون. وإذا نزل الكاتب إلى ساحة السياسة سيفقد لا محالة براءته وقدرته على الإبداع فالكتابة هي الروح التي تمنح للحياة معناها الأسمى. أما السياسة كما يعتقد، فلا يمارسها إلا الإنسان الجريء القادر على المواجهة وهو لا يستطيع أن يقف أمام الناس ليخطب فيهم ويعدهم بأشياء لا يمكنه تحقيقها أبدا. ولم يستطع حسين السعيد أن يجر صديقه إلى عالم السياسة الصاخب ولكنه كان يستغل كل فرصة ليحدثه عن دور المثقف في الحياة العامة محاولا دفع صديقه إلى الترشح للانتخابات التشريعية.

وأجال عمار الحر بصره في الصالة الواسعة ثم قال معتذرا:

- الوالدة غائبة.. إنها عند ابنتها الساكنة بحي "الزيتون". ولهذا سنشرب الليمونادة فقط.

وحك أذنه اليمنى وتابع قائلا وهو يبسم لها بسخرية:

- أنا لا أعرف كيف تُحضر القهوة وأنت تحاول إقحامي في عالم غريب.

وقهقه ثم نهض واتجه نحـــو المبرد. وعاد بعد لحظات بزجاجة ليمونادة وكأسين فارغتين ثم سكب فيهما الليمونـــادة، ومد كأســـا مملوءة لصديقه ثـــم قـــال له:

- ابحث عن شخص آخر.. أنا رجل فاشل لم أستطع أن أقرر في أمر الزواج من فوزية فكيف أشرع للشعب وأدلو برأي في القضايا الوطنية الحساسة؟ لا. أنا لا أصلح للسياسة أبدا ولا أستطيع مخاطبة الجماهير لأنني أبكم..

وقهقه من جديد ثم استطرد قائلا:

- يمكن لرجل السياسة أن يكون معوقا حركيا أما أن يكون من فئة البكم فهذا أمر لم أسمع به.

وتناول حسين السعيد كأس الليمونادة ورشف منها بعض الرشفات ثم وضعها على الطاولة الخشبية، وحرك ذراعيه الطويلتين قائلا لصديقه:

- ستتعود بسرعة على الخطابة.. مخاطبة الجماهير أمر سهل.. المهم أن تكون مقتنعا ببرنامج الحزب.. فبالإخلاص والعمل الجاد ستحقق هدفك.

وأردف قائلا بجد:

- العجيب أن المثقفين يتحدثون كثيرا عن الديمقراطية وحرية التعبير وينتقدون الشعب والأحزاب والجمعيات والحكومة وكل المؤسسات، ويحتجون على كل القرارات والمبادرات ولكنهم يرفضون كل مساهمة فعلية في الحياة السياسية.

وابتسم له عمار الحر قائلا بتحد:

- أرى أن المثقف مؤسسة قائمة بذاتها.. إنه سلطة حقيقية ولهذا أرفض فكرة المثقف العضوي.. فالنقد هو جوهر هذه الاستقلالية.

وسكب الليمونادة في كأس رفيقه. وجد حسين السعيد نفسه في مواجهة رجل قد تصلبت مواقفه أكثر، ولم يرد الخروج من برجه العاجي كما لم يستطع مواجهة خوفه من الآخرين، ولم يتمكن من تجاوز "عقدة" المثقف من رجال السياسة.. تلك العقدة التي يروّج لها مثقفون ومتعلمون يلعنون السياسة في مجالسهم الخاصة ولكنهم يمارسونها بشراهة.. وهزّ حسين السعيد كتفيه ونهض قائلا لصديقه:

- فكر في الأمر بجد.

- الانتخابات على الأبواب.

- وحزبنا في حاجة إلى أمثالك يا سي عمار.

ثم خرج مرددا بإصرار:

- وسأتصل بك..

وظل عمار الحر في بيته الفسيح، غارقا في دوامة خواطره المضطربة..

وبعد دقائق طويلة من التفكير، استعاد بعض هدوئه فحديثه مع حسين السعيد عن السياسة والأحزاب والجمعيات والأزمة وهمومها الكثيرة، لم ينته ولن ينتهي بينهما، فاختلافهما في الرأي لم يؤثر في صداقتهما التي توطدت منذ دراستهما بثانوية "بن عدة بن عودة". وكاد عمار الحر أن ينخرط في رابطة حقوق الإنسان وقد حضر ثلاث اجتماعات نظمها ممثلوها بقاعة سينما "الفتح" ولكنه ابتعد عن كل نشاط حزبي أو جمعوي. لم يكن حسين السعيد راضيا عن موقف صديقه من السياسة ورجالها، وقد نعته بالسلبية والمثالية، وقال له يوما: "يا عمار.. أنت رجل نزيه، ولك مصداقية وسمعة طيبة فلماذا لا تسخر بعض

جهودك للمجتمع؟". ورد عليه عمار الحر بأن الكتابة تظل أفضل نشاط إنساني يخدم به المثقف وطنه وشعبه. فبالكتابة يتحرر الفكر وبها يتطور المجتمع.

.....

وبعد زيارة صديقه المفاجئة، شعر عمار الحر بالزهو. وكان في بعض الأحيان، يتمنى لو يخوض التجربة السياسية كما كان يحلم بمنصب نائب بالمجلس الشعبيْ الوطني. ولمَ لا يحلم في زمن كثرت فيه الأحلام واختلطت بالأوهام؟. فالصحافة الوطنية تتحدث في كل مناسبة سياسية عن امتيازات النائب وحصانته البرلمانية. فالمرتب مغر حقا.. ولكن عمار الحر يخشى السياسة وما قرأه أو سمعه عن رجالها وأعمالهم وهمومهم، لا يشجعه على ممارسة فن الممكن. إنه يعرف بعضْ ضحايا السياسة.. وهو شخص حساس وقد يفقد أعصابه أمام هجوم منافسيه وخصومه، وربما سيرتكب حماقات مخجلة. فالحملات الانتخابية لا تكون إلا قذرة. قد يتهمه بعض الخصوم بالعجز الجنسي مادام لم يتزوج من فوزية العسلي. وربما سيقحم اسمه في

قضية مقتل الأرملة الثرية لاهتمامه بالكتابة عن صديقه الشاعر المتهم. كل شيء ممكن.

لا.. لن يدخل عالم السياسة مادامت قواعد اللعبة لم تضبط بدقة. من الفضل له أن يهتم بمشروعه الجديد.

سعد كثيرا بالمعلومات التي سمعها من حسين السعيد حين استدرجه للحديث عن ذكريات الطفولة.

وعاد إلى مكتبه الصغير ثم انهمك في كتابة ما سمعه من ذكريات. فرغم صداقتهما التي دامت سنوات، ولم يكن يعرف شيئا مهما عن صديقه النائب، خاصة عن طفولته.. ولد حسين السعيد في حي "البحيرة الميتة" وتعلم منذ صغره الكفاح من أجل اللقمة كما قال له.

كان والده "لخضر السعيد" عاملا بمزرعة "التسيير الذاتي" العمومية. وقد توفى قبل أن يلتحق حسين بالمرحلة الثانوية. واضطر لبيع وجبات "الكرنتيكة" بواسطة عربة خشبية إلى أن وجد عملا بسوق الخضر والفواكه.. ولم يهمل دروسه بل واصل تعليمه بجد إلى أن أصبح مهندسا في الميكانيكا. وبعد خمس سنوات من العمل بمؤسسة اللوالب، تحصل على سكن اجتماعي وتزوج طبيبة يتيمة الأبوين.. لذلك لا يمكنه أن ينسى

عهد الرئيس هواري بومدين الذي حقق فيه عدة مكاسب..

ولما طالب منه عمار الحر أن يروي له قصة راضية، أخبره انها كانت امرأة سيئة السمعة. ففي اليوم الذي سكنت فيه حي "البحيرة الميتة"، انتشر خبر خيانتها الزوجية، وتخوّف منها سكان الحي.

وقالت لهم بأنها كانت ضحية لنزوات زوجها الذي لعبت به زينب الهنيدي. وفضلت المطلقة أن تعيش بعيدا عن حياة سكان الحي.. وقد تجاهلها حي "البحيرة الميتة" لولا تهور ابنها "سليم" المطرود من المدرسة. وحدثه حسين السعيد عن اليوم الذي دفعه سليم نحو حوض مملوء بالمياه القذرة فسقط على قفاه الذي ارتطم بحافة قناة السقي.. وكاد حسين السعيد أن يلفظ أنفاسه لولا صراخ أبناء الحي وتدخل عمال حقول البرتقال. وأصبح سليم رئيسا لجماعة من الأشرار، وتوسع نشاطه المخيف إلى الأحياء المجاورة فاشتهر بشرب الخمور، وسرقة البيوت والدكاكين.. وقد أثار اعتداؤه على طالبة معوقة، سخط الجيران الذين طالبوا برحيل راضية من الحي. وفي يوم ممطر، رآها حسين السعيد

وهي تغادر الحي في سيارة 404 البيضاء.. أما ابنها الخطير فقد تم حبسه بسبب تهمة حيازة كمية معتبرة من مخدرات "الشيرة".

وتوقف عمار الحر عن الكتابة متسائلا عن جدوى ذكر قصة راضية في مشروع كتابه الجديد ثم رأى أن معرفة قصتها ربما ستفيده كثيرا إذا ما استطاع أن يربطها بقصة زينب الهنيدي المقتولة.

واستل سيجارة من علبة سجاير "أفراز" وحاول مواصلة الكتابة ولكنه وضع القلم جانبا وحك جبينه بكفه اليمنى وتنهد. تذكر والدته الطيبة فغيابها عن البيت يحزنه كثيرا، ويشعره بالوحدة واليتم. فابتسامتها العريضة تُدخل الدفء على قلبه الخائف من لوعة الفشل. وأشعل السيجارة ثم التفت نحو صورته الملونة الموضوعة على الخزانة الخشبية، ومضى يدخن بعصبية. تذكر فوزية العسلي. لم يرها منذ ثلاثة أيام.

أين هي؟ وهل استبدت بها الشكوك فأقدمت على قطع علاقتها به؟ وردد بغضب :

"فلتفعل.. فلتفعل".

وتنهد بحزن عميق.. لن يهدأ له بال حتى ينهي كتابه الجديد ولكن عليه أولا، أن يخلي ذهنه من كل المشاكل التافهة. وجلس على حافة السرير وهو يركز نظره على القلم الرابض على الورقة التي غزتها حروف صغيرة.

-8-

دخل عمار الحر وحسين السعيد قاعة المركز الثقافي وهما يتبادلان الحديث حول الوضع العام للبلاد ثم جلسا في الزاوية اليسرى التي كان ينيرها مصباح خافت الضوء. وكان الحاضرون ينتظرون ظهور المطرب "الشاب عليلو" الذي سطع نجمه فجأة في عالم "الراي" الصاخب.. لاحظ عمار الحر أن جل الحاضرين من الشباب الحالم بعالم وردي لا يمت بصلة للواقع الذي يعرف مخاضا عسيرا. واخرج حسين السعيد جريدة من جيب سترته الصيفية وقال:

- لم أجد وقتا للاطلاع على أخبار اليوم.

ثم راح يطالع الجريدة المكتوبة بالعربية. ولم يعلق عمار الحر الذي مد رجليه وانتظر كالآخرين ثم أخرج سيجارة من سترته المهلهلة وأشعلها بسرعة وراح يدخن بهدوء وهو يبحث بعينيه المرهقتين عن مدير المركز الثقافي الذي دعاه لحضور الحفل الفني المنظم بمناسبة "عيد البرتقال".

لم يره في القاعة. قد يكون في مكتبه الملتصق بالقاعة الفسيحة.

ومط عمار الحر شفتيه ثم غرق في تفكير غريب حول صاحبة المكالمة الهاتفية التي تلقاها البارحة. لقد عبرت له صاحبتها المجهولة عن إعجابها به ولم تضف شيئا. ولما سألها عن اسمها أجابت بسرعة: "ليلة سعيدة"، وقطعت المكالمة الهاتفية. ألا تكون المكالمة الهاتفية لفتاة تحاول الضحك عليه؟ لقد سبق له أن تلقى مثل هذه المكالمات الهاتفية المزعجة.. وكانت في أغلب الأحيان لشبان متذمرين من الحياة ولكن صاحبة هذه المكالمة سحرته بصوتها الحزين. وتذكر المكالمات الهاتفية لفتاة يتيمة الأم روت له قصتها الحزينة مع والدها العصبي الذي حرمها من مواصلة الدراسة، ومنعها حتى من الخروج إلى حمام الحي.. كان عمار الحر يجد في مكالماتها الهاتفية المتكررة متعة لا تعادلها إلا متعة تصفح الكتب الأنيقة ومطالعتها في سكون الليل الطويل. وحدثته مرارا عن أبيها الذي كان في خصام دائم مع زوجته الشابة، وأخبرته وهي تضحك، أن والدها غضب ذات يوم من زوجته النحيفة فدخل غرفة النوم ونزع ملابسه ثم اخرج الطلاء الأسود من الخزانة الخشبية وكتب به على صدره

العاري العدد "0" ثم انتصب واقفا أمام زوجته التي كانت تلومه في كل مناوشة معه على عجزه عن تلبية الحاجيات الأساسية للبيت.. ثم راح يصيح بأعلى صوته: "يا العالية.. أنا صفر.. يا العالية أنا لا شيء".

ولما رأته "العالية" زوجته الشابة وهو في عريه الفاضح يصرخ ويضحك بصخب كالمجنون، فهمت أن الحياة معه أصبحت مستحيلة فتلفعت بـــ"حايك المرمه" الجميل، وهربت من البيت دون رجعة. وكانت "الفتاة الشقية" تروي لعمار الحر أحلامها الكثيرة ومنها الحلم الذي رأت فيه والدها العصبي وهو يأمرها بالزواج من شيخ طاعن في السن فاستسلمت لرغبته. وفي ليلة الزفاف تحول زوجها الشيخ إلى بعوضة مخيفة سحقتها العروس بقدمها فغضب منها والدها وسبها ثم شدها من ذراعها اليسرى وصفعها بقوة أفقدتها عقلها.. وفي آخر مكالمة هاتفية مع الفتاة الشقية التي رفضت أن تخبره باسمها، قالت له بأنها تريد منه أن يستغل حياتها في كتابة قصة أو في سيناريو لفيلم أو مسلسل تلفزيوني.

ونفث عمار الحر الدخان منتظرا انطلاق الحفل الفني: تمنى لو اعتذر لمدير المركز الثقافي وعاد إلى

البيت لمواصلة الكتابة عن الشاعر المحبوس، وأجال بصره الضعيف في القاعة الفسيحة ثم ركزه على الصفوف الأمامية حيث كانت تجلس النساء والفتيات المتأنقات فأطال النظر في الوجوه المبتسمة، وبعد ذلك التفت نحو صديقه قائلا:

– تذكرت عبد الحكيم..

وتنهد حسين السعيد قائلا بصوت هادئ:

– إنه شاعر موهوب. لا تخف. سينجو من هذه المصيبة كما أخبرني المحامي.. سأقف بجانبه حتى يخرج من السجن.

وطارد عمار الحر دخان سيجارته بحركات يده اليسرى ثم قال مخاطبا صديقه:

– أنت رجل شهم يا حسين.. فرغم مهامك الكثيرة لم تنس صديقنا الطيب. وعبد الحكيم الوردي لن ينسى مساعدتك له ولعائلته الفقيرة.. أنا مثلك متأكد من براءته.. سيكون لهذا الرجل شأن في مجال الشعر.

وابتسم له حسين السعيد ثم أشار إلى الباب الخارجي. ولما التفت عمار الحر نحو الباب، رأى نصيرة التل وهي تدخل القاعة. كانت ترتدي بنطلون

"جينز" وقميصا أحمر، وتغطي شعرها القصير بمنديل حريري وردي. وكانت ترافقها فتاة سمراء.. وأدار رأسه نحو صديقه النائب وسأله عن رفيقة نصيرة التل فرد جسين السعيد قائلا بصوت خافت:

- ألا تعرفها؟ إنها سميرة بنت بلقاسم الرمال..

وحرك عمار الحر رأسه وهو يراقب القاعة التي ضجت بالتصفيق الحار حين انتصب شاب أنيق أمام مكبـــر الصوت ثـــم راح يخاطـــب الحاضرين بصوته الرقيـــق:

- سيداتي.. أوانسي.. سادتي.. مرحبا بكم في هذا الحفل الفني المتواضع الذي نظمته جمعيتنا الفنية بالتنسيق مع المركز الثقافي.. وقبل أن تستمتعوا بأغاني مطربنا المشهور الشاب عليلو، سيقدم الأستاذ بن عيسى الدريس كلمة بهذه المناسبة.. فليتفضل مشكورا.

وتقدم بن عيسى الدريس أمام مكبر الصوت، وهو يخرج ورقة من جيب قميصه الأصفر، ألقى عليها نظرة خاطفة ثم تنحنح وراح يقرأ النص المكتوب بحماس كبير:

- سيداتي.. أوانسي.. سادتي.. نحتفل اليوم بعيد البرتقال وهو العيد الذي كدنا ننساه لولا جهود المخلصين لهذه المدينة الطيبة. وبهذه المناسبة، سنقول الحقيقة دون خوف من أي أحد. فالحقيقة المرة هي أن المدينة التي كانت تحيط بها حقول البرتقال من كل الجهات.. المدينة التي كانت تصدر الحمضيات إلى بلدان الخارج، أصبحت أراضيها قاحلة والتهم بعضها الأسمنت المسلح، ومع ذلك يتكلم بعض المنتخبين عبر التلفزة عن الجهود المبذولة في مجال الفلاحة ويتحدثون بلا خجل عن تطوير الزراعة وعن قنوات سقي الأراضي الخ.. الخ.. وهنا اغتنم هذه الفرصة لأقول لكم أن المنتخب مسؤول بالدرجة الأولى عن هذا الوضع..

وسكت لحظة. تأمل وجوه الحاضرين الذين صفقوا له كثيرا. وتحرك حسين السعيد في كرسيه دون أن يعلق بل تفرس في وجه بن عيسى الدريس المبتهج، وتابع ما كان يجري في القاعة، باهتمام كبير ولكن عمار الحر تضايق من كلام بن عيسى الدريس واعتبره تهجما على صديقه النائب.. وفكر في مقاطعة الخطيب

غير أنه أراد أن يعرف نيته الحقيقية من وراء هذا التهجم المفاجئ.. وتتحنح بن عيسى الدريس مرة أخرى ثم واصل خطابه قائلا بانفعال:

- وماذا فعل المنتخب؟ أريد أن أعرف.

- فالمحاسبة لابد منها. وإذا كنا سكتنا في الماضي القريب عن هؤلاء المنتخبين فقد حان الوقت لتقييم نشاطهم. أليس ذلك؟

ودوت القاعة بالتصفيق الحار. تألم حسين السعيد ولكنه ظل جالسا في مكانه ولم يغادر القاعة كما توقع عمار الحر. وانحنى بن عيسى الدريس قليلا وهو يردد بفرح :

- شكرا.. شكرا..

ثم أردف قائلا بزهو كبير:

- أنا ناضلت من أجل الديمقراطية والتعددية وحرية التعبير وكل الناس يعرفون هذا ولكن مع الأسف الشديد، ظهر اليوم من يزعم انه ديمقراطي ومن أنصار التعددية وحقوق الإنسان والحريات الفردية والجماعية.. ونحن نعرف أنه كان في الماضي القريب..

ولما همّ عمار الحر بمقاطعة بن عيسى الدريس عن الكلام، نهض رجل مديد القامة وصاح مخاطبا بن عيسى الدريس:

– ما هذا الكلام يا أستاذنا؟ الانتخابات لم يحن موعدها بعد.. وأنت مع الأسف الشديد، انطلقت في حملة انتخابية في اليوم الذي أردناه عيدا حقيقيا لمدينتنا وأراضيها الخصبة.

وانتصبت نصيرة التل واقفة ثم التفتت نحو صاحب القامة المديدة ثم خاطبه بحماس:

– لم تتخوفون من قول الحق؟.. أعلم أن الحق مر.. ولكن لابد من قوله.. لهذا أطرح عليكم سؤالا واحدا وهو ماذا فعل المنتخبون؟

وجلست في مكانها وهي تمرر يمناها على شعرها الجميل. شعر عمار الحر أن نصيرة التل استغلت الفرصة للهجوم عليه وعلى صديقه النائب.

قلق. فكر في الرد عليها ولكنه التفت نحو الأستاذ بن عيسى الدريس الذي قال بتحد:

– يتخوفون من قول الحق لأنهم غير قادرين على المواجهة وتحمل مسئولياتهم التاريخية..

ونهض شاب أسمر وقال بغضب:

– أين هو الشاب عليلو؟

وردد بعده بعض الشبان المتحمسين:

– نريد عليلو.. عليلو..

وفي نفس اللحظة، ظهر مدير المركز الثقافي فاعتذر للحاضرين عن الحرج الذي تسبب فيه بن عيسى الدريس ثم أعلن بسرعة عن اسم المطرب عليلو الذي ظهر ببدلته الصيفية الصفراء فدوت القاعة بالتصفيق الحار. وانعكست الأضواء الساطعة على وجه المطرب الذي قرب الميكروفون من فيه، وراح يتمايل في مشيته الراقصة على المنصبة الخشبية ثم انطلق صوته مرددا:

"يا الراي.. يا الراي.."

وقام حسين السعيد قائلا:

– إن نصيرة التل تستعد لخوض الانتخابات القادمة.. ما رأيك؟

وهز عمار الحر كتفيه ثم نهض وهو يقول بضيق:

– إنها فتاة متهورة.. لن يهدأ لها بال حتى يحكم على عبد الحكيم بعقوبة المؤبد.. أرادت المجنونة أن تستفزنا..

وقبل خروجهما من القاعة، اعترض طريقهما مدير المركز الثقافي فاعتذر لهما عن الحرج وكرر شكره وامتنانه على حضورهما الذي اعتبره شرفا للمركز وألح على عودتهما في مناسبة أخرى واخبرهما بأن المركز سيكثف من نشاطه الثقافي خلال الصيف كله ثم التفت نحو عمار الحر قائلا:

– لقد وعدتنا بمحاضرة حول تاريخ المنطقة.. فنحن في انتظار مساهمتك القيمة يا سي عمار..

وهمس عمار الحر:

– إن شاء الله..

وخرج عمار الحر رفقة صديقه حسين السعيد من المركز الذي انطلقت منه أنغام "الراي" الصاخبة.

-9-

كانَ الساعة تشير إلى الساعة الثامنة صباحا لما استيقظ عمار الحر الذي لم ينم البارحة إلا ثلاث ساعات أو أقل.. قضى وقتا طويلا من الليل وهو يطالع كراسات عبد الحكيم الوردي ويسجل ملاحظاته على الفقرات المتعلقة بتجربته الشعرية كما فكر مطولا في الطريقة التي سيكتب بها مشروعه الجديد. لقد اشترى من وهران كتبا كثيرة ومنها بعض الكتب الخاصة بتراجم العظماء وقد أعجبه كتاب عن الشاعر المتنبي فقرأ منه بعض الفصول.. وفكر في تقليد أسلوبه في الكتابة. ورغم القلق الذي استولى عليه حين أشارت الساعة الحائطية إلى الواحدة بعد منتصف الليل، إلا أنه تمكن من كتابة ست أوراق من الشكل الكبير، وضعها في ملف أصفر يحتوي على الأوراق المكتوبة وقصاصات الجرائد اليومية. وارتدى عمار الحر بدلته الصيفية التي اشتراها من محل "منصور العباسي" ثم سرح شعره المجعد أمام مرآة صغيرة الحجم. وتناول قهوته، ودخن سيجارة ثم توجه إلى مأرب البيت. ولما ركب سيارته الرمادية تذكر عبد الحكيم الوردي

وتساءل إن كان بريئا. ها هو الشك يساور قلبه من جديد. وانطلق بسيارته الرمادية نحو وسط المدينة. وركز نظره أمامه خوفا أن تلقى عيناه فوزية العسلي التي ازداد سخطها عليه. سيعاملها برفق حتى لا تنهار.

مرت سنوات طويلة وهي تنتظر ليلة الزفاف. ودخل بسيارته حظيرة شارع "محمد خميستي" ثم تركها بجانب شجرة ظليلة، وسار بهدوء نحو بناية المؤسسة الإدارية متسائلا عن سر النعم البادية على المارة وهذا رغم شكاوى الناس من المعيشة الصعبة.. ثم مر بمقهى "السعادة" المكتظ بالرجال الذين اسندوا ظهورهم إلى الكراسي البلاستيكية البيضاء والوردية، منتظرين أن تحدث معجزة أو يعود بهم الزمن إلى العهود السابقة.

ولما اقترب من الحديقة الظليلة، تذكر المكالمة الهاتفية المجهولة وصوت صاحبتها الرخيم. ألا تكون "سميرة الرمال" هي صاحبة ذاك الصوت الملائكي؟ لا.

كان صوت الفتاة حزينا ومؤثرا. أحبه. سحره.. إنه يشبه صوت الفنانة الفرنسية "اديث بياف". وفي حدود الساعة العاشرة صباحا دخل مقر المؤسسة الإدارية. واتجه نحو مصلحة التكوين وهو يبحث بعينيه

الضعيفتين عن الفتاة السمراء. لقد نفذ سحر سميرة الرمال الغريب إلى روحه المضطربة. تمنى رؤيتها في مكان آخر. رأى نصيرة التل واقفة بجانب الجدار المقابل للباب الخارجي وهي تتصفح جريدة. مر بجانبها دون أن يحييها ولكنه بعدما خطا بعض الخطوات نحو مكتب مصلحة التكوين توقف ثم رجع إليها. وحين اقترب منها، رفعت نصيرة التل رأسها وحملقت في وجهه ولم تتكلم. حياها عمار الحر مبتسما ثم قال بلطف:

- رب صدفة..

لم ترد على تحيته. قالت له بسخط:

- ابتعد عني.. أنا لا يهمني أمر عبد الحكيم الوردي. أرجوك.. لا تكتب عني أي شيء. لقد سمعت بهذا الكتاب الذي تنوي تأليفه عن علاقتي بذلك المجرم.. أحذرك من الكتابة عني..

وأراد أن يستفزها بسؤاله عن سبب تخوفها من الكتابة التي ستخلد اسمها ولكنه رفع ذراعه اليمنى في الهواء قائلا لها:

- لا تقلقي.. لن أكتب عنك.. فأنا مهتم بالشاعر عبد الحكيم الوردي وتجربته في الشعر..

فردت عليه بحنق :

- لست غبية.. ومثلك لن يخدعني..

وجرت نحو مكتبها. وسأل عمار الحر عن سميرة الرمال فدله الحاجب ذو الشارب الغزير على مكتبها الصغير.. وفتح عمار الحر بابه بهدوء ثم دخله.

كانت سميرة الرمال منهمكة في تحرير مراسلة إدارية ولما رأته وقفت مرحبة به وأجلسته على الكرسي الخشبي. لاحت على شفتيها الورديتين المنفرجتين قليلا، ابتسامة رائعة ثم قالت له بإعجاب:

- لقد سمعت بما تقوم به من جهد لصالح صديقك ولفائدة الثقافة كذلك.

فالكتابة عمل مهم خاصة في هذا الوقت.

وقال عمار الحر:

- عبد الحكيم في حاجة إلى مساعدتنا فهو مبدع كبير وعلينا أن نكون بجانبه..

تنهدت سميرة الرمال التي ظلت تحملق في وجه عمار الحر. كاد يسألها عن المكالمة الهاتفية المجهولة.

تأمل وجهها جيدا. رأى في عينيها السوداوين بريقا أخاذا.. ولاحظ في صوتها نغمة حزينة جدا. إنه حزن المرأة العاشقة التي تنتظر في صبر عودة الحبيب من غربته الطويلة. حاول دون جدوى أن يقارن بين صوت سميرة الرمال وصوت صاحبة المكالمة الهاتفية المجهولة ولكنه فشل في ذلك. وقال في نفسه أنها تعيش قصة حب كبير. ولكن مع من؟ وتعلقت عيناه المرهقتان بشفتي سميرة الرمال التي قالت له:

فعلا.. عبد الحكيم الوردي شاعر كبير ولكنه دمر نفسه.. وسكتت.. وفجأة اغرورقت عيناها السوداوان بالدموع ثم نهضت وراحت تمسح دموعها المنحدرة على وجنتيها المتوردتين. ونهض عمار الحر بدوره ثم أشار إليها أن تعود إلى مكانها وخرج من المكتب الضيق دون أن يلتفت نحو الفتاة السمراء ثم غادر المؤسسة دون أن يطرح على سميرة الرمال أي سؤال يتعلق بالمتهم.. لم يكن الوقت مناسبا..

لقد اكتشف الحقيقة المؤلمة وشعر بالغيرة من عبد الحكيم الوردي الذي كانت تحبه سميرة الرمال.. تلك الفتاة اللطيفة التي يقطر السحر من عينيها الحزينتين..

-10-

بحث عمار الحر عن "جميلة الساعي" في معمل النسيج ولم يجدها. وعلم من البواب ذي الذراع المقطوعة بأنها أخذت حقوقها القانونية وقدمت استقالتها من مؤسسة النسيج العمومية ثم قال له:

- لقد أصبحت تاجرة.

لم يصدق عمار الحر أن جميلة الساعي فتحت محلا لبيع الملابس الجاهزة بنهج ضيق متفرع عن شارع محمد خميستي. شكر البواب ثم ركب سيارته واتجه نحو وسط المدينة. وكيف قررت جميلة الساعي المغامرة في عالم التجارة.. هذا العالم الغريب الذي كان في الماضي القريب، حكرا على الرجال فقط؟

وبعد دقائق، وصل إلى المحل ذي الباب الزجاجي الذي كتب عليه وبألوان حمراء وزرقاء: (الملابس الأنيقة.. للنساء والأطفال). وأوقف أمامه سيارته القديمة واتجه نحو الباب الزجاجي ثم دفعه برفق ودخل المحل والابتسامة تعلو شفتيه الجافتين.

استقبلته جميلة الساعي فرحة. بدت له في فستانها البنفسجي الضيق قصيرة جدا. ولما قفزت بخفة نحو

الباب الخلفي للمحل الجميل، لاحظ أنها كانت حافية القدمين. وتابع حركاتها الرشيقة وهي تنتعل الحذاء الأبيض ذا الكعب العالي. ثم أقبلت نحوه وهي تقول بسرور :

– تمنيت أن تزورني رفقة فوزية.. أين هي؟ هل هي بخير؟

وفهقهت ببراءة الأطفال ثم أضافت قائلة له:

– سألومها إذا ما اشترت جهاز العروس من محل آخر.. أنا أختها. وهذا المحل محلها. أليس ذلك؟

ثم وضعت يدها اليمنى على شفتيها الغليظتين وانتظرت رده. وقال لها:

– أنا جد مسرور بنشاطك التجاري وبهذا المحل الجميل. أتمنى لك النجاح في هذا العالم الصعب.

واقتربت منه جميلة الساعي ثم قالت له:

– لقد التقيت فوزية وأخبرتها بالمحل الذي فتحته لبيع الملابس المستوردة. لقد وعدتني بزيارة المحل التجاري. ألم تخبرك؟

وتنهد عمار الحر قائلا:

– أصبحت فوزية قلقة.

ضربت جميلة الساعي كفا بكف وقالت باسمة:

- أعلم ذلك.. ولكن لا تخف سأنصحها بعدم الزواج. ما جرى لي لا يمكن أن أنساه. اليوم.. أنا حرة كما ترى.. فبعد أيام فقط سأسافر إلى استنبول ثم إلى دمشق.

وضحكت ملء فيها ثم أضافت قائلة برقة:

- أنت رجل طيب ولكنك تحلم كثيرا.. أما فوزية فهي امرأة واقعية ومتزنة وتقدر المسؤولية حق قدرها..

ومرر عمار الحر يمناه على وجهه الشاحب ثم قال بصوت خافت:

- وعبد الحكيم الوردي؟ هل كان قيدا تحررت منه؟

وحركت رأسها ذا الشعر القصير ثم أغلقت الباب الزجاجي ووقفت مسندة ظهرها إلى الجدار المزين بصور الفنانين والفنانات. كانت صورة الشاب عليلو ملتصقة بجانب صورة جميلة الساعي الفوتوغرافية.

وتنهدت صاحبة المحل ثم راحت تحدثه عن عائلتها الفقيرة المحتاجة لمالها ورعايتها.. مازال اخوتها صغارا أما أبوها البناء المريض بالربو فلم يعد قادرا على العمل.. وحدثته أيضا عن نفسها وعن حظها

المتعثر مع عبد الحكيم الوردي الذي لم تفهم سبب قلقه الدائم وغضبه الجنوني لأتفه الأشياء. طلقها بسبب بعض الأوراق المكتوبة فقط.. لقد جمعت ذات يوم كل أوراقه المبعثرة في غرفة النوم الضيقة ثم أحرقتها، وحين علم عبد الحكيم الوردي بما جرى لمخطوطاته فقد أعصابه وضربها بوحشية ثم طلقها بعد زواج لم يدم إلا تسعة أشهر. وكادت جميلة الساعي أن تتزوج "عبد الحميد المالحي" الذي توفت زوجته تاركة له طفلا واحدا، لو لم يمت بسكتة قلبية. وغامرت في عالم التجارة بتشجيع من صديقتها "مومية الروسي" التي كانت تتمتع بتجربة مهمة في تجارة "الحقائب" فأصبحت تسافر معها أسبوعيا إلى سوريا وتركيا. واشتهر محلها الجميل ببيع الحلي والملابس المستوردة.

واحتقن وجه جميلة الساعي العريض بالدماء. فهموم الحياة لا تنتهي ومن الأفضل أن تنساها وتواجه المستقبل وأهواله بصبر. وظلت تحملق في وجه عمار الحر الذي قال لها:

- عبد الحكيم شاعر و..

وقاطعته جميلة الساعي قائلة بعصبية:

- اسمع يا عمار.. أنا أعرفك جيدا. أليس كذلك؟ أنت مثله تهتم بالثقافة والشعر الخ.. ولكن ما دخل الشعر في الحياة الزوجية.. ليكن شاعرا.. ليكن أمير الشعراء.. أردت منه أن يهتم بالبيت وشؤونه فقط. عبد الحكيم الوردي لن ينجح في حياته أبدا.. أنه لا يعرف إلا القراءة والكتابة.. ولا يحب إلا نفسه.. أنه رجل أناني.. أفهمت ما أقول؟ ها هو يفشل في تجربته مع نصيرة التل بعدما هجرته سميرة الرمال.. أما علاقته الغريبة بالأرملة المقتولة فأدعو الله تعالى أن ينجيه من عقوبة الإعدام.

وفرقع عمار الحر أصابع يده اليمنى. شعر نحو جميلة الساعي بالشفقة. فاض قلبه بالعواطف النبيلة.

رغب في احتضانها. إنها امرأة طيبة ضحت كثيرا من أجل عائلتها المتواضعة.. كان حظها سيئا مع عبد الحكيم الوردي، الغريب الأطوار كما قالت له. ولاحظ عمار الحر في عينيها الجاحظتين حزنا عميقا. ربما تزوجها عبد الحكيم الوردي بدافع الشفقة عليها. لم تكن جميلة فملامح وجهها غير متناسقة وجسدها هزيل أما قامتها فقصيرة جدا.. وبعد طلاقها، قال عبد الحكيم

الوردي لعمار الحر، أنه لا يمكن أن يعيش معها وقد تحدث عن تجربته الفاشلة مع جميلة الساعي في إحدى مقالاته المنشورة بالصحف الوطنية. ونهض عمار الحر وهو يقول لها بلهجة هادئة:

- عبد الحكيم ضحية.. لم يجد من يأخذ بيديه فسقط في الفـــــخ.

ومطت جميلة الساعي شفتيها الغليظتين وتنهدت قائلة بتعجب :

- الرجل تجاوز عمره الثلاثين وأنت تتحدث عنه كأنه طفل..

وحرك عمار الحر رأسه وقال :

- فعلا.. إنه طفل.. الشاعر لا يكبر يا جميلة.

وتفرست في وجهه مدة لحظات ثم قالت له بانفعال :

- لماذا تزوج؟ أليلعب ببنات الناس؟ عبد الحكيم الوردي رجل أناني ولا يحب إلا نفسه وخربشاته الصحفية.. وهو لا يعلم أننا لا نعيش بكلام الشعراء.. أليس كذلك؟

وسكتت برهة ثم أردفت قائلة بسخرية:

– لقد لجأ الطفل إلى زينب الهنيدي لترضعه ذهباً فقتلها بوحشية.. يا له من شاعر غريب الأطوار. إنه مجنون فعلا.

ووعدها عمار الحر بزيارة أخرى رفقة فوزية العسلي وخرج من المحل وهو يشعر بحزن عميق يتجمع في قلبه المرهق. وركب سيارته القديمة ثم انطلق بها نحو مكتبته المتواضعة. سخط على إهماله لصيانتها. لقد أصبحت سيارة قذرة وغير قادرة على السير السريع. كل شيء فيها يئن ويطلب النجدة. رفع رأسه نحو السماء الصافية. تذكر سميرة الرمال وهي تمسح دموعها. عض شفته السفلى ثم راح يلقي بصوت مسموع وبمتعة ممزوجة بالحزن، أبياتا من قصيدة الشاعر "بول فرلين" التي حفظها عن ظهر قلب مذ كان طالبا بمتوسطة محمد خميستي:

" تتساقط الدموع في قلبي..
كالمطر على المدينة..
ترى ما هو الشعور الكئيب..
الذي يمزق قلبي..."

لم تُجد السماء منذ سنوات بالأمطار المنعشة للأرواح. وتضاعف ألمه. "آه .. يـــا صوت المطر الخافت.." .. متـــى تسقط الأمطار العنيفة حتى يستيقظ الناس من سباتهم العميق؟ واتجه نحو مكتبته قائلا في نفسه : "لابد من مقاومة هذا الملل الذي أخشى أن يتسلل إلى أعماقي"..

-11-

كانت سميرة الرمال رائعة في فستانها الأزرق.. بدت له بتسريحة شعرها الأسود الطويل فتاة مرحة.

استقبلها عمار الحر بمكتبته قائلا بسرور:

- مفاجأة سارة..

أجالت سميرة الرمال بصرها في رفوف المكتبة التي تكدست عليها كتب قديمة طبعتها المؤسسة الوطنية للكتاب المحلة، ثم جلست وقلبها تداعبه مشاعر الفرح الغامر. إنها سعيدة وكيف لا تكون سعيدة وعبد الحكيم الوردي قد بعث إليها بسلامه الحار مع أخته "سمية" ؟ مازالت تحب الشاعر رغم كل المتاعب والهموم. لم تستطع أن تحب غيره.. لقد كتب عنها قصيدة نشرتها الجريدة في .قسم "النادي الثقافي". ظنت وقتذاك أنه سيطلب يدها ولم يحدث ما تمنته. ولما تزوج جميلة الساعي، بكت بحرقة وقطعت علاقتها به. وبعدما طلقها انتظرت أن يعود إليها ولكنه وقع في حب نصيرة التل.

ابتعدت عنه أكثر. وكادت تنساه لولا محنة السجن التي غيرت عبد الحكيم الوردي كثيرا وجعلته يعيد النظر في حياته الخاصة. بلغها عن طريق أخته سمية

أنه مازال يحبها ويريدها زوجة. سيثبت لها ذلك بعد خروجه من السجن. وهي التي ظنت أنه نسيها وأن ما كتبه عنها في الماضي القريب كان مجرد كلمات فارغة. وتحدثت سميرة الرمال بحماس كبير عن الديمقراطية التي ستفتح لا محالة آفاقا واسعة للمرأة والشاب والمثقف ثم انحنت على حقيبتها الجلدية السوداء وخرجت منها بطاقتين جميلتين مكتوبتين بالخط الكوفي فسلمتهما إلى عمار الحر قائلة بلطف:

- ستنظم جمعية (إصرار) للدفاع عن حقوق المرأة، ندوة ولائية حول قانون الأسرة.. لذا فكرت في دعوتك ودعوة السيد النائب..

وتصفح عمار الحر البطاقتين الجميلتين ثم قال لها معتذرا:

- يوم الجمعة القادم سأقضيه في البيت. أنا في حاجة إلى بعض العزلة لمواصلة الكتابة.

حركت سميرة الرمال حاجبيها وقالت له:

- حضورك يشجعنا كثيرا. جمعيتنا الفتية في حاجة إلى دعم مثقفي المدينة.

ثم أطرقت برأسها قليلا وأردفت قائلة:

- أما الكتابة فوقتها المناسب هو الليل.. أليس كذلك؟ أن تكتب معناه أن تنسى الدنيا ثم تغرق في الذات العميقة للبحث عن الكلمة المتوهجة. ففي النهار الصاخب لا يمكن للإنسان أن يخلو إلى نفسه.

وأنصت إلى كلامها اللطيف بإعجاب كبير. هذه الفتاة السمراء الأنيقة لا يمكن إلا أن تكون مبدعة.

كلامها ينم عن موهبة امرأة جربت الكتابة ومتعتها.

وابتسم لها قائلا بلهفة:

- يسعدني أن اقرأ لك.

ضيقت سميرة الرمال عينيها قليلا ثم قالت بخجل:

- أنا مجرد مخربشة.

وقال لها:

- أتمنى أن تكتبي عن تجربتك مع عبد الحكيم الوردي أو عن رأيك فيه.. وسأنشره ضمن كتابي.. ما رأيك؟

وردت بسرعة:

- أنني مهتمة بأمور أخرى.

ها هو يحرضها على الكتابة التي كانت تمارسها في سرية تامة. وهل تستطيع أن تكتب عن رجل مازالت تحبه رغم تهوره وسلوكه الطائش؟ لم تنس اليوم الذي

ثار فيه عبد الحُكيم الوردي وقال لها بعنف العواصف الهمجية: "ابتعدي عني.. أنا لست من طينتك".. وحاولت أن تعرف سبب غضبه الرهيب فلم يجبها بل قال لها بأن الوقت غير مناسب.. وبمرور الوقت، علمت من أمها أن والدها المتقاعد اتصل بعبد الحكيم الوردي وأمره بالابتعاد عن ابنته العفيفة. واعتبر عبد الحكيم الوردي كلام بلقاسم الرمال إهانة له. وبعد أيام فقط، سمعت بزواجه من جميلة الساعي.

واليوم، وبعد تجربة الحبس، تعلم عبد الحكيم الوردي كيف ينسى وكيف يداوي جراحه بنفسه. تمنت سميرة الرمال الحياة معه. وظل عمار الحر يراقبها بعينيه الضعيفتين. وواصلت سميرة الرمال كلامها قائلة :

– قلت لك.. أنا مجرد مخربشة.. فالكتابة معاناة حقيقية.. ولكن إذا ما أسعفني القلم فلن أكتب إلا عن قضايا المرأة؟

وألح عليها عمار الحر أن تكتب أي شيء عن الشاعر الذي لا يمكن أن تنساه المدينة. وسوت خصلة من شعرها الأسود وهي تصر على حضوره رفقة حسين السعيد، في ندوة الجمعية التي تترأسها امرأة

طبيبة ومناضلة في رابطة حقوق الإنسان ثم نهضت وهي تقول مبتسمة:

- أتمنى ألا يضيّع حسين السعيد الفرصة للرد على منافسيه السياسيين.. فالانتخابات أقبلت بعواصفها الهوجاء.

وأردفت قائلة:

- أنا وحسين السعيد ننتمي إلى حزب واحد فكيف لا أدعمه؟ أتمنى ألا يتخلف عن هذا الموعد الذي سيحضره كل ممثلي المجتمع المدني.

وسألها عمار الحر قائلا باهتمام:

- وهل ستحضر نصيرة التل؟

وأجابت قائلة:

- ربما ستأتي.. ولكنها مهتمة بالشاب عليلو.

وسألها باستهزاء:

- وهل سيتزوجها؟

ردت عليه سميرة الرمال بابتسامة عريضة ثم لوحت له بيدها اليمنى وخرجت من المكتبة وشعرها الليلي يتراقص على كتفيها. تخيلها فراشة زرقاء في هذا الصيف القطيع. أسكره صوتها الرخيم. وحين رآها

لأول مرة، أحبها.. ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. ها هي تنتظر خروج المحبوس.. ونصيرة التل قد تتزوج الشاب عليلو و.. وهو كالعادة، سينتظر حائرا رد فعل فوزية العسلي..

-12-

انتشر خبر القبض على الشاب "عليلو" في كل أرجاء المدينة.. سمعت نصيرة التل الخبر من عمار الحر الذي وجدته في انتظارها أمام مقر المؤسسة الإدارية. لم تصدقه. حاول عمار الحر أن يجرها للحديث عن مطرب "الراي" ولكنها هزّت كتفيها وقالت له بمقت:

- أنت رجل غريب حقا.. ابتعد عني.

ثم واصلت سيرها الحثيث نحــو حي "الجسر الصغير". وفي طريقها التقت بجارتها "فتيحة العسكري" التي أكدت لها الخبر المفزع. ودخلت البيت وهي في غاية الانفعال. دارت في غرفة نومها الضيقة.. ثم جلست على حافة السرير وبكت بحرقة. ها هي تجد نفسها من جديد في مواجهة مشكلة أخرى. ستتبرأ من المطرب المجرم. وهل قتل زينب الهنيدي؟ عليلو شاب لطيف ولا يبدو أنه قادر على قتل بعوضة. قد تكون مؤامرة حاكها ضــده منافسوه في الغناء. وتنفست بصعوبة. ها هي تفشل مرة أخرى في تحقيق حلمها مع المطرب عليلو الذي تمنت الحياة معــه بمدينة وهران الباهية.

لقد فكرت بجد في الهرب من خناجر الألسنة الحادة وجحيم العيون الجائعة للفضيحة. الصدفة وضعت المطرب في طريقها.. كان يراقبها من بعيد ويلتهم جسدها البض بعينيه الجذابتين. التقت به مرارا في محل لبيع أشرطة أغاني الراي والبدوي، الموجود بالزقاق المقابل لساحة السوق السوداء. لقد تحول إعجابها بأغانيه العاطفية إلى حب فخطوبة.

ولم تكن والدتها راضية عن هذه الخطوبة المغشوشة كما قالت لها، لأنها لم تكن تعرف هذا المطرب الذي سكن شقة بالعمارات الرمادية المقابلة للثانوية.

ووجدت نصيرة التل نفسها في مواجهة الحقيقة المرة. الخبر المفزع أفقدها صوابها. لقد انتهى كل شيء.. فما ألعمل؟ نهضت بسرعة ثم فتحت الخزانة الخشبية. ارتدت لباسا بنيا وانتعلت حذاء خفيفا، وجرت نحو الباب الخارجي ففتحته بعصبية وخرجت ثم أغلقته بعنف. واتجهت بسرعة نحو الجهة الغربية قاصدة شقة صديقتها الحلاقة "فريدة الذهبي". تمنت أن تجدها في بيتها. ستفضي لها بكل همومها. وقبل أن تختفي خلف مدرسة حي "الجسر الصغير"، سمعت صوت والدتها.

تمهلت قليلا ثم توقفت.. واقتربت منها والدتها وهي تقول لها بقلق:

- يا نصيرة.. ألم أقل لك أن الرجال لا ثقة فيهم.. حذرتك منهم ولكنك لم تسمعي لنصائحي.. وها هو الرجل الذي تمنيته زوجا قد ألقي عليه القبض.. إنه مجرم.. هو الذي قتل الأرملة المسكينة".

وظهر القلق على ملامح وجه نصيرة التل التي لم تكن مستعدة للحديث مع والدتها المتوترة الأعصاب.

خافت نصيرة التل أن تفقد سيطرتها على نفسها أمام سكان الحي. تغيرت والدتها كثيرا. أصبحت صارمة جدا. ففي السنوات الأخيرة، تخلت عن "حايك المرمة" التي . عوضته بالجلباب، واختارت خمارا أسود، وأصبحت لها أمنية واحدة وهي أن تقوم بفريضة الحج.. وتنهدت نصيرة التل قائلة لأمها المضطربة:

- قد يكون الخبر مجرد إشاعة.. فالرجل مظلوم.

وقالت لها أمها بعصبية:

- المظلوم هو عبد الحكيم الوردي.

واستطردت قائلة بحزن:

- والدك مريض جدا.. ولم يعد قادرا على تحمل حماقاتك..

وابتعدت نصيرة التل عن أمها وهي تقول لها بصوت مخنوق:

- الدنيا حظوظ.

وسارت بخطى سريعة نحو وسط المدينة. وعند منعطف مركز البريد الرئيسي، توقفت السيارة الرمادية التي أطل منها عمار الحر وهو يدعو الفتاة إلى الركوب بسيارته. وردت عليه نصيرة التل قائلة بحنق:

- أفضل المشي على عربتك القذرة.

وهددته باللجوء إلى الشرطة إذا لم يبتعد عنها.. وقبل أن تواصل سيرها قال لها عمار الحر:

- لماذا هذا الجفاء يا نصيرة؟

وحدجته نصيرة التل بنظرة قاسية ثم قالت له بسخرية:

- اهتم بنفسك أولا..

ثم واصلت طريقها دون أن تلتفت إليه. وألقى عمار الحر نظرة فاحصة على هندامه ثم انطلق بسيارته نحو الجهة المؤدية إلى المؤسسة العقابية.

وتمهلت نصيرة التل في سيرها فخبر القبض على المطرب افقدها السيطرة على نفسها. كيف ورط عليلو نفسه في قتل الأرملة الثرية؟ ولماذا؟ هل كان في حاجة إلى الأموال؟ ولكن ما دخلها في أمر هذا المطرب إن كان قد ارتكب فعلا تلك الجريمة البشعة؟ وهمست بسخط : "فليسجن.. فليسجن"..

وعند زاوية المستشفى القديم، دارت نحو النهج المؤدي إلى بيت سميرة الرمال، المقابل لساحة مركز الأمومة، ولكنها ترددت طويلا قبل أن تطرق باب البيت.. كانت تكره سميرة الرمال، ولا تحب أن ترى الفرح في عيني زميلتها السمراء التي تحلم بالزواج من الشاعر المهووس.. وقبل أن تتراجع عن دخول بيت بلقاسم الرمال، فُتحت نافذة من نوافذ الطابق الأول وأطلت منها سميرة الرمال التي أشارت إليها أن تتقدم نحو الباب الخشبي البني.

ودخلت نصيرة التل البيت الجميل وقلبها يتمزق ألما.

وعانقتها سميرة الرمال بحرارة ثم أجلستها على الأريكة المريحة وهي تقول لها:

- القوا القبض على الشاب عليلو وادخلوه الحبس.. لقد شارك في الجريمة البشعة التي ارتكبها أخوك "سليم وليد راضية"..

تنهدت نصيرة التل وقد تجلى الاهتمام في عينيها الخضراوين الحائرتين وتساءلت عن علاقة سليم بالمطرب عليلو. وتنهدت سميرة الرمال متأسفة ثم راحت تحدثها عن قصة عليلو، الابن الثاني لراضية التي أنجبته في مدينة وهران.. لقد دفعه أخوه سليم "ولد راضية" نحو الوسط الفني وغامر عليلو فنجح وأصبح مطربا معروفا في عالم موسيقى الراي ولكنه وقع في فخ المخدرات. استغله أخوه سليم وأغراه بالحصول على الأموال الطائلة إذا ما ساعده على قتل الأرملة الثرية وأكد له بأنه سينتقم لوالدتهما التي شردت بغير حق. ووعده برفع دعوى للحصول على كل أملاك والده قدور القناش. وتمكن سليم من كراء شقة بالعمارات الرمادية المقابلة للفيلا الخضراء. وقضى بها أياما طويلة وهو مختبئ في الشقة قبل أن يقدم على ارتكاب الجريمة البشعة ثم كلف أخاه عليلو بإخفاء الأموال والحلي المسروقة. وغادر سليم المدينة بعدما

منح مالا للمراهق "كمال الكولور" الذي شهد زورا ضد عبد الحكيم الوردي. وتفادت سميرة الرمال ذكر بعض التفاصيل التي رواها لها المحامي سليمان الحسام.

ومسحت نصيرة التل عينيها المبللتين ونهضت.

حاولت سميرة الرمال أن تجلسها وهي تدعوها لتناول القهوة والحلوى ولكن نصيرة التل أصرت على الخروج.

وفي النهج المؤدي إلى حي "القرابة"، جرت الدموع على خدي نصيرة التل التي سارت في النهج المؤدي إلى بيت صديقتها الحلاقة فريدة الذهبي. شعرت بأنها امرأة وحيدة وشقية، وفي حاجة إلى من يعطف عليها.

-13-

قرأ عمار الحر العبارة المكتوبة بالبنط العريض على الصفحة الأولى من جريدة الصباح، ثم أعاد قراءتها للمرة الثالثة: "محاولة انتحار فاشلة". وظل يتفرس في صورة الفتاة التي كانت تعلو العناوين الفرعية المثيرة للانتباه : "شبح المرأة المقتولة".. "سر الجريمة".. "قصة حب فاشلة".. "محاولة انتحار عجيبة".. وبسط صفحات الجريدة المعربة على مكتبه الخشبي وتأمل صورة نصيرة التل جيدا. تغير وجهها الدائري الذي كان يطفح بالحيوية. في عينيها الواسعتين حل اليأس والخوف من المجهول، وعلى فمها الصغير المنفرج قليلا نحو اليمين، ارتسمت ابتسامة حزينة لفتاة مستسلمة للقدر. وعكس شعرها المنفوش تدهور حالتها النفسية. ولم يستطع عمار الحر أن يتخلص من أثر صدمة الخبر إلا بعد دقائق طويلة. شعر نحو الفتاة الشقية بالشفقة. وشهق بعمق وزفر قائلا:

- لم كل هذا العذاب يارب؟

حلمها مع المطرب عليلو لم يدم طويلا.. لقد أشارت جرائد الصباح إلى علاقتها بالمطرب عليلو، وكتبت

عن قصتها السابقة مع الشاعر المتهم بالقتل كما تحدثت عن ظروف مقتل الأرملة الثرية وذكرت أن محاولة الانتحار تخفي بعض الأسرار المتعلقة بالمتهم الجديد.

وكتبت جريدة أخرى مقالا مطولا عن خيبة الأمل التي تدفع أغلب الفاشلين من الشباب إلى الانتحار، ونصح صاحب المقال قراء الجريدة بالإيمان القوي في هذا الزمن الذي ضاعت فيه القيم والمثل العليا، وحذر السلطات العمومية من ظاهرة الانتحار الغريبة التي اجتاحت كل الشرائح الاجتماعية. أما معد الصفحة الثقافية فبشر قراء الجريدة بإطلاق سراح الشاعر الموهوب عبد الحكيم الوردي وبعودته القريبة إلى الكتابة في "الملحق الثقافي" الذي تصدره الجريدة أسبوعيا. وأشعل عمار الحر سيجارة ووضعها بين شفتيها الجافتين. كان حائرا. كيف حاولت نصيرة التل الانتحار وهو الذي ظنها فتاة قوية الشخصية وصاحبة إرادة فولاذية تستطيع أن تواجه بها كل الصعاب؟ ماذا حدث لها؟ لماذا لم تخبره سميرة الرمال بعلاقة نصيرة التل مع المطرب عليلو؟ أكانت تجهل ذلك؟ ألم يكن عبد الحكيم الوردي على علم بتلك العلاقة الغرامية؟ فجأة،

انهارت نصيرة التل التي لم تستطع أن تتحمل الصدمة العنيفة. لقد ابتلعت كمية كبيرة من الأدوية الفاسدة.

وصرحت أمها المتألمة للجريدة أن ابنتها كانت راضية بحياتها لولا ظهور المطرب عليلو الذي وعدها بالزواج والحياة معه بمدينة بوهران، وذكرت أن سليم "ولد راضية" هو الذي أفسد أخاه "عليلو" وورطه في قضية مقتل زينب الهنيدي. وكتب الصحفي أن الوالدة الحزينة ذرفت دموعا غزيرة وهي تردد : "ابنتي طيبة ولكن ليس لها حظ". وفي يومية أخرى خصصت صفحة كاملة عن مشكلة الانتحار، كتب أحد الصحافيين البارزين عن ظاهرة الانتحار الغريبة عن مجتمعنا وارجع سببها إلى قلة الإيمان والشعور بالوحدة والغربة في مجتمع سيطرت عليه المادة وعقلية الربح السهل، ورأى أن مرحلة المآسي الرهيبة أسهمت بقوة في تفكك الروابط العائلية والاجتماعية كما خلفت آثارا سلبية ومنها ظاهرة الانتحار المخيفة.

ووجد عمار الحر في مقالات الصحافة الوطنية مادة ثرية بالمعلومات سيستعين بها في كتابة مشروعه

الجديد. لقد اهتم كثيرا بما كتبته الصحفية "سعاد ميم" عن نصيرة التل وهي في مستشفى" محمد بوضياف".

لقد كررت نصيرة التل عبارة "الحياة تافهة" في إجابتها عن سبب إقدامها على الانتحار، وتكلمت عن اللحظة التي فكرت فيها أن تضع حدا لحياتها المضطربة.. تلك اللحظة التي شعرت فيها برغبة جامحة في التخلص من عذابها، والهرب من هذا العالم الجاف.. وكانت رغبة مرعبة لا يمكن أن تتذكرها بكل تفاصيلها، وعلقت الصحفية "سعاد ميم" على الابتسامة الحزينة التي ظلت مرتسمة على شفتي نصيرة التل ثم أنهت مقالها بالعبارة التالية: "إنها ضحية العقليات الرجالية المتحجرة"..

وقرأ عمار الحر مقالا آخر عن هموم الشباب، نبه فيه صاحبه إلى ظاهرة البطالة وقلة الترفيه إلى جانب القيود والضغوط الاجتماعية ثم طالب بفتح الأبواب في وجه الجيل الصاعد. واطرق عمار الحر رأسه لحظة. تمنى لو كان قادرا على الكتابة في الصحف اليومية التي أصبح تأثيرها كبيرا على قطاع واسع من الرأي العام. وأرجأ التفكير في موضوع الكتابة الصحفية إلى

يوم آخر.. أصبح همّه منحصرا في الانتهاء من الكتابة عن الشاعر المحبوس. لقد جمع معلومات هامة من كراسات عبد الحكيم الوردي ومن قصاصات الجرائد إلى جانب ما سجله من أحداث وآراء سمعها من معارف الشاعر وأقاربه.

ولم يستطع عمار الحر أن يتخلص من حالة الغثيان التي انتابته حين رأى نصيرة التل منهارة القوى، ضائعة في عالمها المضطرب. لاحظ أن شعرها القصير فقد لونه الجميل، ولم يعد وجهها الدائري جذابا كما كان بل أصبح شاحبا تخرقه عينان غائرتان حلت فيهما الحيرة والخوف. لقد أصيبت بحالة انهيار خطيرة. شعر ببعض الخجل حين استقبلته نصيرة التل بابتسامة حزينة. وسألته عن عبد الحكيم الوردي كما عبرت له عن رغبتها في زيارته بعد إطلاق سراحه، وحدثته عن والدها المريض، وعن عمها إسماعيل التل المغتال وبكت أخاها "منير التل" المسجون بتهمة المشاركة في مسيرة غير مرخصة وتخريب مقرات عمومية، احتجاجا على عملية توزيع السكن الاجتماعي.

وقالت له إن البطالة هي السبب في ذلك. كان منير التل جالسا في المقهى لما رأى رجالا وشبانا يمشون في الشارع الرئيسي فانضم إليهم ولكنه لا يدري كيف فقد صوابه وراح يردد شعارات المحتجين على عمل اللجنة البلدية. وتمنت نصيرة التل أن ترى أخاها الذي لم ينجح في شهادة البكالوريا ثم بكت بحرقة طالبة الخروج من المستشفى. وشجعها عمار الحر على البقاء فيه حتى تسترجع قوتها، ثم خرج من غرفتها مهموما.

وركب سيارته قاصدا مقهى الزبير الزموري الذي كان يرتاده أبناء الأحياء المجاورة.. وتمنى أن يلعب "الدومينو" حتى يصرف عقله عن التفكير في قضية الانتحار المحيرة..

أوقف سيارته أمام المقهى ونزل منها ثم توجه نحو القاعة الواسعة. استقبله النادل بحرارة. وانضم عمار الحر إلى أبناء حيه الذين كانوا يفضلون الجلوس في الزاوية اليمنى من المقهى. ودار الكلام حول عبد الحكيم الوردي الذي انتشر خبر خروجه من الحبس في الأيام القادمة القريبة ثم تحدثوا عن المجرم سليم وأخيه المطرب عليلو. وفي هذا المقهى الذي يلجأ إليه عمار الحر للعب الدومينو والاستماع إلى أغاني "أحمد وهبي"، و"بلاوي الهواري"، والشيخ "حمادة"، والشيخ "المماشي"، وحكايات أبناء الحي. وعرف من النادل وأصحابه أن "راضية" ولدت في دوار مجاور للمدينة ورحلت مع عائلتها إلى المدينة.. والتقت قدور القناش صدفة في عرس ابن صديقه "عز الدين". ركبت معه في سيارته المرسيدس التي كانت تقود موكب العرس. جذبته بشرتها البيضاء وملامحها الرقيقة. تعلق بها إلى درجة أنه زار والدها مرارا وطلب منه بإلحاح يد ابنته "راضية" التي كانت لها أخت غير متزوجة تكبرها بثلاث سنوات.. وقبل أبوها رغم معارضة الأم لخوفها

على ابنتها "سعدية" من كلام الناس الحريصين على زواج البنت الكبرى قبل أخواتها.

وضحى الوالد بابنته "سعدية" التي لم يتقدم إليها فيما بعد أي خطيب رغم جمالها الهادئ. وسعدت راضية بالزواج من الرجل الثري الذي أسكنها فيلا جميلة بحي "تلمينه" ونسيت ابن عمها "أحمد الإسكافي" الذي كان يحلم بها زوجة. لقد أثار زواجها بالتاجر الأقاويل التي لم تهتم بها راضية.. وتساءل سكان المدينة عن السبب الذي دفع قدور القناش رغم كبر سنه إلى الزواج من مراهقة. وبعد سنة وبعض الأشهر، وجدت راضية نفسها في ورطة.. ففي زياراتها لبيت والديها، التقت بـــ"أحمد الإسكافي" الذي راح يذكرها بالماضي السعيد ويلومها على موافقتها على الزواج من شيخ مريض بالسكري ثم استغل ضعفها. ولم تمض أشهر حتى انتفخ بطنها وظنت راضية أنها ستدخل الفرح على قلب زوجها العجوز ولكن قدور القناش واجهها بالحقيقة القاسية. اتهمها بالخيانة الزوجية وضربها بوحشية ثم طلب منها أن ترمي ما في بطنها.

أخبرها بأنه عقيم وهذا ما أفزع راضية التي لم تكن على علم بذلك. طلقها بسرعة، وطردها من الفيلا الخضراء التي أحبت العيش فيها. وخرجت نادمة على خيانتها. لم تجد مأوى إلا في حي "البحيرة الميتة" المجاور لحقول البرتقال. رفضت العودة إلى بيت والديها خوفا من انتقام والدها العصبي. فكرت في الإجهاض ولكنها خافت من الموت. زارها ابن عمها أحمد الإسكافي في بيتها المتواضع ولم يحدثها عن الزواج، وهي نفسها لم تكن مستعدة للزواج مرة أخرى.

قررت أن تجمع الأموال من بيع الملابس المستوردة لشراء شقة متواضعة. تمنت أن تنتقم من قدور القناش الذي تزوج المطلقة زينب الهنيدي.

وكان "سعيد بوكرشة" من بين الحاضرين الذين تحدثوا كثيرا عن راضية وقد أكد لزائن المقهى أنها انتقلت إلى الجزائر العاصمة وسكنت فيما بعد حي الكاليتوس ثم تزوجت من ابن عمها الذي ترك محله ولحق بها. وانضم صاحب المقهى إلى الجماعة وسأل عمار الحر عن أحوال عبد الحكيم الوردي.

ابتسم له عمار الحر بطيبة. لقد وجد الفرصة سانحة للحديث عن المثقف وهموم الكتابة فقال له:

– كل تجربة في حياة الكاتب تتحول إلى مادة للكتابة يا عمي الزبير.. فالسجن الذي دخله عبد الحكيم الوردي سيعمق رؤيته للحياة.

وعلق الزبير الزموري قائلا بسخرية:

– يلعنها كتابة مع السجن.. اسمع يا عمار، السجن لا تتمناه حتى لعدوك.. فلا تفكر في تلك التجربة المرة يا ولدي.. لا تفكر فيها أبدا.

وضحك الحاضرون بصخب. واخبرهم عمار الحر أن عبد الحكيم الوردي ألف كتابا سيثير ضجة كبيرة في الأوساط الثقافية ولما أعلمهم أن الشاعر قرر أن يزور المقهى مباشرة بعد خروجه من السجن، صفقوا فرحين وانطلقت من حنجرة النادل زغرودة طويلة وكأنها زغرودة امرأة. ثم دار الحديث عن أحوال الحي وأسماء المرشحين للانتخابات التشريعية والملحية، وعلق الزبير الزموري قائلا:

– وماذا قدم لنا هؤلاء المنتخبون؟.. لا شيء.. فنحن لا نراهم إلا أيام الحملة الانتخابية..

وقلب يديه في الهواء كأنه يقول للملتقين حوله "الله غالب" ثم أضاف بحدة:

- لو تطلب الدولة رأيي الخاص في أمر هذه الانتخابات لقلت لها: "لسنا في حاجة إلى الانتخابات.. فهي سبب كل الأدواء. إنها سبب العروشية والجهوية ومشاكل أخرى.."

وضرب جبينه المغضن بكفه اليمنى وأضاف :

- لماذا لا تعيّن الدولة من تتوفر فيهم الكفاءة والإخلاص للوطن ثم تحاسبهم بعد ذلك أمام كل الناس؟

ولما ذُكر اسم حسين السعيد، ابتسم الزبير الزموري قائلا:

- إنه مثل الآخرين.. ومع ذلك فأنا أحبه. إنه شخص نزيه ومتواضع. وكل أسبوع يقصد المقهى مع الأصدقاء وبعض المناضلين.. المهم انه يزورنا من حين لآخر..

ثم التفت نحو عمار الحر وسأله قائلا:

- وأنت؟ لماذا لا تقدم ترشيحك كالآخرين؟ نحن معك.. أنا وأبنائي وأقاربي وكل رجال العرش القاطنين في المدينة وفي الدواوير والقرى المجاورة.. وسأجند

حتى زبائن هذا المقهى إن أحببت.. ترشح يا عمار وسترى.. أريد أن أراك مسؤولا وكفى. لا تخف. لن أطلب منك أي شيء.

وابتسم له عمار الحر قائلا:

- لم أخلق للسياسة.

واختلف الحاضرون حول دور المنتخب ومعنى السياسة.. وجرى بينهم حديث مطول حرم عمار الحر من لعب الدومينو ولكنه لم يندم على الوقت الذي قضاه في مقهى الزبير الزموري.. لقد سمع بعض المعلومات التي ستفيده في الكتابة عن الشاعر عبد الحكيم الوردي.

-15-

وداخل مكتبته المتواضعة التي سادها جو حزين، بسط عمار الحر جريدة الصباح أمام عينيه الضعيفتين وشرع في مطالعة الأخبار السياسية التي كانت تزخر بها الحياة العامة للبلاد.. قرأ بعض العناوين الفرعية حول القضايا السياسية والاجتماعية التي كانت تعج بها الساحة الوطنية، واطلع بسرعة على مقال عن المجالس الشعبية والانتخابات التشريعية والمحلية لسنة 2002، ثم وضع الجريدة جانبا. كان عقله مشغولا بالمتهم عليلو.. من يكون؟ كيف استقر بالمدينة؟ ما هو السبب الذي دفعه إلى المشاركة في ارتكاب الجريمة البشعة بعد ما أصبح مطربا معروفا؟ لقد بدأ الشاب عليلو حياته نادلا في خمارة بمنطقة "الأندلسيات" ثم اهتم بترديد أغاني البدوي الوهراني ثـم أصبح من مطربي "الـراي"..

وانهمك عمار الحر في الكتابة بحماس كبير. سيبقى في المكتبة إلى أن ينتهي من كتابة الفصل الأخير. وغمر قلبه فرح كبير: ها هي الحروف تغزو بياض

الأوراق المبعثرة أمامه.. تلك الأوراق التي ستصبح كتابا سيخلد به اسمه. ابتسم لنفسه.

وعندما طرقت أذنيه دقات باب المكتبة، وضع القلم على الأوراق المكتوبة ونهض متثاقلا ثم فتح الباب فدخل حسين السعيد وهو يمسك بيسراه هاتفه المحمول.

وصافحه عمار الحر بحرارة وسأله عن أحواله ثم عن غيابه فرد النائب قائلا:

- كنت مشغولا..

وجمع عمار الحر أوراقه المبعثرة ثم ووضعها في درج المكتب. ودار حول مكتبه الخشبي. ادخل حسين السعيد الهاتف المحمول بجيب سترته وتابع قائلا:

- قمت بزيارة بلديات الرمكة، والحاسي، ودار بن عبد الله، وبني زنطيس..

ثم راح يتحدث عن معاناة المواطن في الأرياف والقرى النائية. وقاطعه عمار الحر قائلا بضيق:

- أرجوك.. لا ترهقني بالحديث عن الجمعيات العامة وما جرى فيها من نقاش...

ثم دار الحديث بينهما حول دور المثقف فقال عمار الحـــر: .

- لا أحد يستطيع أن يقنعني ببرنامجه..

وثار فيه حسين السعيد قائلا بتحد:

- أنتم المثقفون تتكلمون كثيرا.. تنتقدون السياسة ورجالها.. تشككون في كل شيء.. ترفضون الانخراط في الأحزاب.. ولا تشاركون في ترقية العمل السياسي ولكنكم لا تقدرون الجهود التي يقوم بها المناضلون والمواطنون المخلصون.. وحين ترون ما لا يعجبكم تغضبون ولا تفعلون شيئا وكأن مهمتهم الأولى والوحيدة هي الكلام ثم الكلام.. ولا شيء غير الكلام.

واعترض عمار الحر قائلا:

- أرجوك. قلت لك مرارا يا حسين أن العالم يتطور بسرعة مذهلة ونحن مازلنا نردد نفس الكلام.. أولا.. لابد من إعادة تحديد المفاهيم السائدة.. فالمجتمع يشهد حركية كبيرة ولهذا يجب على الدولة أن تتكفل بالثقافة لأنها وحدها القادرة على وضع المعالم الحقيقية لمستقبل زاهر..

وابتسم حسين السعيد قائلا:

- ها قد أصبحت تتعاطى السياسة. الحملة الانتخابية أقبلت.. أتمنى أن تكون بجانبنا..

وضع عمار الحر يمناه على شعره المجعد وقال:

- قلت لك: السياسة في واد وأنا في واد آخر.. فلا تحاول معي لعبتك المعروفة..

وأشار إلى صورة نصيرة التل المنشورة بإحدى الجرائد الوطنية ثم قال له:

-هل قرأت ما جرى لها؟.. لقد حاولت الانتحار !؟..

وقال له عمار الحر:

- نصيرة فتاة غريبة.

وروى حسين السعيد قصته معها. لقد عبر لها يوما عن إعجابه بها فصدته نصيرة التل بعنف ونصحته بالابتعاد عنها. شعر وقتذاك أن عبد الحكيم الوردي قد ورطه لما كتب عنها قصيدة جميلة سمت بها إلى مرتبة المرأة المناضلة. مرت سنوات، ولم ينس حسين السعيد رد فعلها العنيف. ومنذ تلك اللحظة، لم يرها إلا يوم الحفل الفني الذي نظمه المركز الثقافي بمناسبة عيد البرتقال. وجرى بينهما حديث مطول حول ظاهرة

الانتحار ثم تبادلا الآراء حول التحولات العميقة التي يشهدها المجتمع الجزائري، كما تكلما عن تحديات العولمة الشمولية وانعكاساتها. وقال عمار الحر بحماس:

- لابد من مواجهة هذه التحديات.. المخاض عسير ولكنه سيكون مثمرا.. أليس ذلك؟

وقال حسين السعيد:

- سيكون المخاض عسيرا.. هذا أمر لاشك فيه.. ولكن قل لي.. كيف ستكون المواجهة مفيدة إذا كان أمثالك لا يتحملون مسؤولياتهم في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ البلاد؟ فأنت ترفض ممارسة السياسة بحجة الكتابة ولكنك لم تكتب عبارة واحدة منذ سنوات.

وثار عمار الحر قائلا:

- أنت مخطئ يا حسين.. لقد قطعت شوطا مهما في الكتابة.

ونهض حسين السعيد ثم توجه نحو الباب وهو يقول:

- هذا شيء جميل.. ولكنني أخشى أن تتوقف عن الكتابة.. فأنا أعرفك جيدا يا عمار..

- لا تكن قاسيا على صديقك..

ولاحت ابتسامة عريضة على ثغر حسين السعيد الذي خرج قاصدا مقر حزبه. وظل عمار الحر يتفرس في صورة نصيرة التل. كيف انهارت المرأة التي ظنها قوية وقادرة على تحدي كل الصعاب؟ وسليم ولد راضية.. أين هو الآن؟ هل القي عليه القبض؟ المهم في نظره هو خروج صديقه من السجن.. لقد أخبره المحامي سليمان الحسام أنه سيفرج عنه بعد إتمام بعض الإجراءات الضرورية.

ونهض وهو يفكر في تسجيل كل الأفكار التي خطرت بباله خلال هذا اليوم. لقد تقدم كثيرا في مشروعه. سينهيه في ظرف أسابيع إذا لم يحدث ما يصرفه عن الكتابة. إنه لا يخشى إلا فوزية العسلي التي فقدت أعصابها وأصبحت تطالبه بالإعلان عن الخطوبة وتحديد تاريخ يوم الزفاف. إنه يشفق عليها.

وهل تكفي الشفقة في اللحظة التي تحتاج فيها فوزية العسلي إلى من يصون شرفها؟ وأين هو الحب الذي كان بينهما؟ أمازال يحبها؟ الهي.. أصبح رأسه يغلي

بالخواطر المحمومة. ولم كل هذه الوساوس يا ربٍ؟ لم كل هذا العــذاب؟

وخرج من مكتبته رافعا عينيه المرهقتين نحو السماء الصافية. حرارة هذا الصيف لا تحتمل.. حــرارة مخيفة.. ها هي سنة أخرى من الجفاف تمر.

أصبحت مصيبة الجفاف مرعبة لكل الناس.. انقبض صدره وهو يهمس لنفسه: "أمرنا غريب حقا.. فمستقبلنا مرتبط بسقوط الأمطار وأسعار البترول". وتساءل: "ولماذا لا نخصص يوما وطنيا للاحتفال بعيد الأمطار؟".. الخطر هو ألا نجد يوما قطرة ماء في الصنابير. ومتى يتوقف عن هذا التفكير المرهق؟ لاشك، أن حرارة الشمس قد أثرت فيه. مسح جبينه المتصبب عرقا، واتجه بخطى سريعة نحو سيارته القديمة التي ذكرته بفوزية العسلي.. لم ير المعلمة القلقة منذ أسبوع أو أكثر.

قد تكون في زيارة عند خالتها التي تقطن مدينة "وادي ارهيو". إنه يخشى أن تعود إلى ملاحقته على أمل الاستسلام لرغبتها الجامحة في الزواج.

سيتفادى لقاءها خلال الأيام التي سيخصصها للكتابة.
وحين ادخل المفتاح في باب السيارة، سمع صوتا رقيقا يناديه باسمه فالتفت خائفا نحو جهة الصوت. رأى سميرة الرمال مرتدية فستانا أبيض. اقتربت منه وهي تقول له بلطف:

- عبد الحكيم.. سيخرج خلال هذه الأيام.

وعبر لها عمار الحر عن سروره الكبير ثم رد:

- أعلم.. أعلم..

ولاحظ عمار الحر بريق الفرح في عينيها السوداوين ثم دعاها للاستراحة بالمكتبة ولكن سميرة الرمال تنهدت بقوة وقالت له:

- لقد اعترف الشاب عليلو بمشاركته في ارتكاب الجريمة.. عبد الحكيم بريء.. بريء..

ومسحت العرق المتصبب على رقبتها ووجنتيها المتوردتين ثم تابعت قائلة بحزن:

- كانت نصيرة التل ضحية لمؤامرة سليم.. من كان يظن هذا؟

وبعد تبادل بعض المعلومات حول عبد الحكيم الوردي ونصيرة التل، انصرفت سميرة الرمال نحو

بيتها. التصق عمار الحر بسيارته، ولم يفتح بابها إلا بعد اختفاء سميرة الرمال خلف بناية مركز البريد ثم ألقى بالجرائد اليومية على الكرسي الخلفي للسيارة وقال في نفسه: "إنها فتاة ساحرة.." ففي عينيها السوداوين سحر لا يقاوم. تذكر مرة أخرى فوزية العسلي وهو يركب سيارته الرمادية التي انطلق بها نحو مستشفى محمد بوضياف. وهل مات حبه للمعلمة المهذبة؟ مضت على علاقتهما سنوات لم يطرح فيها على نفسه مثل هذا السؤال المخيف؟ وهل يريد أن يتهرب من مسئوليته في الوقت الذي حان فيه اتخاذ القرار الحاسم؟ ألا يخشى أن تفكر فوزية العسلي في الانتحار؟ إنه خائف من مواجهة الحقيقة. الزواج مهمة شاقة وهو لا يريد أن يرهق نفسه بالدخول في متاهات الحياة التافهة قبل أن يحقق شيئا عظيما كإنجاز كتابه الجديد. لتغضب فوزية. لقد قرر أن يؤلف كتابه قبل الإقدام على الزواج منها.

وقبل أن يمر بمركز التكوين المهني، تساءل عن السبب الذي يدفعه إلى زيارة نصيرة التل؟ لم ينس اللقاء الأول الذي وجدها فيه جالسة في حديقة "الشجرة

العملاقة". كيف انهارت؟ وكيف هي الآن؟ تمنى لها الشفاء حتى تساعده على إنجاز مشروعه الجديد. وهل ستفضي له بأسرار علاقتها بالشاب عليلو؟ سيحاول أن يقنعك بذلك لو... فجأة، وجد نفسه أمام شاحنة. كان سائقها يشير إليه أن ينتبه. انتفض عمار الحر في مكانه وضغط بيديه المرتجفتين على المصراع ثم سب صاحب الشاحنة وصرخ بكل قواه وتكرر صراخه المفزع ثم سمع ضجيجا غريبا.. وتحرك في مكانه.

حاول الهرب ولم يستطع أن يتحرك. ارتطم رأسه بمقود السيارة.

تأوه. رأى أضواء خاطفة ونجوما صغيرة.. وعمّ الظلام الكون كله.. ثم فقد وعيه.

-16-

استيقظ عمار الحر قبل منتصف الليل ببعض الدقائق وهو يشعر بضعف كبير. لقد رأى في نومه كابوسا مرعبا. كان ضوء مصباح الغرفة خافتا.

ركز نظره في وجه الممرضة السمينة ثم التفت نحو والدته التي ظلت جالسة بجانبه منذ دخوله المستشفى.

كان يشعر ببعض الصداع. سألته أمه عن حالته الصحية فهز حاجبيه ولم يتكلم.. ابتسمت له الممرضة السمينة قائلة برقة :

- لا تخش شيئا.. لم تصب بأي كسر..

ونهضت بخفة ثم قالت للحاجة زهرة:

- إذا احتجتم لأي شيء فأنا موجودة بالمكتب المجاور..

واتجهت نحو الباب وخرجت. تقلب عمار الحر في سريره. حاول أن يتذكر ما جرى له. شعر بألم مبرح في رجله اليسرى. اقتربت منه والدته القلقة وقالت له:

- الحمد لله.. لقد نجوت من الموت يا ولدي..

تأملت ملامح وجهه المرهق وراحت تحدثه عن الحادث المروع الذي تعرض له ثم نصحته ببيع سيارته

القديمة التي كادت تقتله. وأخبرته عن المعاينة التي أثبتت أن السيارة كانت بدون مصراع.. وبعد ذلك لامته على لامبالاته وعدم اهتمامه بنفسه كما أشارت بالتلميح إلى عزوبته المخيفة دون أن تكلمه عن الزواج. أراد عمار الحر أن يسألها عن فوزية العسلي ولكنه خاف أن تجد والدته الفرصة سانحة لإثارة موضوع الزواج. وتفاديا لأي نقاش عقيم، عبر لها عن رغبته في النوم ثم امتدت يمناه نحو زر المصباح وضغط عليه فساد الظلام الغرفة الضيقة. وسألته والدته إن كان جائعا فرد عليها بنبرة المتشكي:

- لا رغبة لي في أي شيء..

وعادت الحاجة زهرة الحر إلى الكرسي وهي تدعو الله تعالى أن يحفظ ابنها وجميع المؤمنين من مصائب الدنيا والحساد وأولاد الحرام. واغمض عمار الحر عينيه مستسلما للنوم.. تذكر مشروعه كما تذكر عبد الحكيم الوردي، وحسين السعيد، ونصيرة التل، وفوزية العسلي، وسميرة الرمال. وخطرت بباله تساؤلات كثيرة. وهل خرج عبد الحكيم الوردي من السجن؟ وأين هو الآن؟ هل سيتزوج بسميرة الرمال؟ وفوزية

العسلي، كيف استقبلت خبر الحادث الذي كاد يسكنه مقبرة سيدي عبد القادر؟ هل حزنت عليه؟ لقد بدأ الشك يساور قلبه. ونصيرة التل، هل غادرت المستشفى؟ ألم تفكر مرة أخرى في الانتحار؟ وهو متى يخرج من المستشفى حتى يتفرغ للكتابة؟ سينجز كتابه مهما تكن الصعوبات. هاجمته خواطر كثيرة بعدما هجره النوم.

أراد أن يسأل والدته عن مصير السيارة الرمادية ولكنه فضل أن ينتظر الفرصة المناسبة.

تمنى لو وجد مهدئات ليتناولها حتى ينام نوما هادئا. لم يستطع مقاومة هواجسه الرهيبة. هل اهتم حسين السعيد بأمره؟ هل زاره في المستشفى وتدخل من أجل علاجه؟ إنه يريد أن يعرف ذلك. وفوزية العسلي، ألم يخطر ببالها أنه أصبح معوقا ولم يعد قادرا على الزواج؟ وحرك رجله اليمنى ثم اليسرى وقلب أضلاعه ثم مد ذراعيه الطويلتين في الهواء وبعد ذلك حمد الله على سلامته. لم يكن يشعر إلا بألم خفيف بقدمه اليسرى. ألم تقل له الممرضة السمينة بأنه لم يصب بأي كسر؟ إنه معافى حقا. سيخرج غدا من المستشفى كما قال له الطبيب. بعد عودته إلى البيت، سيستقبل في

اليوم الأول، الأقارب والأصدقاء والمعارف ثم يعزل نفسها عن كل الناس، ويشرع في الكتابة حتى ينهي مشروعه. لن يخرج من البيت. لن يطلب يد فوزية العسلي إلا بعد الانتهاء من تأليف الكتاب الذي سيبرهن به على أنه تحدى نفسه المتخاذلة وانتصر عليها. لا.. لن يخدع فوزية العسلي. سيتزوجها.. وسيواصل الحياة معها. شعر أنه تغلب على نفسه القلقة وأصبح قادرا على مواجهة ضعفه.

وبعد الفحص الطبي الأخير، نصحه الطبيب عبد النور بعطلة نقاهة وحذره من العودة إلى السياقة قبل شهر كامل. وقال عمار الحر:

– سأعمل بنصيحتك يا دكتور..

ثم أضاف باسما:

– وحتى سيارتي لم تعد صالحة للسياقة...

وقال له الطبيب:

– الحذر واجب في كل الحالات.. أليس كذلك؟

وابتسم له ثم خرج من الغرفة.. ومط عمار الحر شفتيه وهو يبحث عن كناشه الأزرق، وارتاح لما وجده في الجيب الداخلي لسترته.

وخرج من المستشفى رفقة والدته وأخته الكبرى "مليكة" زوجة أستاذ بمركز التكوين المهني. وفي سيارة الأجرة التي نقلتهم إلى البيت، ظل عمار الحر يفكر في مشروعه.. ولما سألته والدته عن سبب قلقه أجاب ببرود:

- أنا متعب.

وحين دخل غرفته الواسعة، اغلق الباب وراءه واستلقى على السرير.. وبعد لحظات امتدت يمناه إلى أوراقه المكتوبة التي تركها مبعثرة في درج طاولة سريره.. ثم راح يطالع مسودة مخطوطته. شعر بأن مشروعه على وشك الانتهاء.. قام متثاقلا وجلس أمام مكتبه الخشبي. وبعد لحظات من التردد، شرع في كتابة بعض العبارات القصيرة عن تجربته في المستشفى، وكتب أيضا عن الحادث الذي منعه من زيارة نصيرة التل في المستشفى. ثم توقف لحظة عن الكتابة وقال في نفسه : "هل علمت نصيرة التل بما جرى له؟ هل زارته في المستشفى؟".. ولما دخلت والدته الغرفة وهي تحمل فنجان القهوة، سألها عن الأقارب والأصدقاء والمعارف الذين زاروه في

المستشفى وهو في حالة غيبوبة فذكرت له جل معارفهم ولكنه لم تطمئن نفسه حتى سمع اسم حسين السعيد ثم سألها قائلا:

- وفوزية؟

وتنهدت تنهدة حارة وهي تقول له:

- لا تفكر فيها.

سألها بقلق:

- ما جرى؟ هل حدث لها مكروه؟..

هزت الحاجة زهرة رأسها قائلة:

- لقد انتظرتك طويلا يا بني.. ولكنها..

وسكتت. وسألها بلهفة:

- ماذا حدث لها؟

وأجابته بلهجة فيها بعض اللوم :

- وماذا أقول لك؟ لقد خطبها الممرض امحمد الكواش. وسيتم زواجهما خلال هذا الصيف إذا ما وافقت فوزية..

وصاح متألما:

- ماذا جرى لها؟ مستحيل أن تقبل..

وخاطبته الأم الجريحة قائلة بجرأة:

- وهل قدرها أن تنتظر رجلا لا يدري ماذا يفعل ولا يهمه المستقبل؟ لقد نصحتك مرارا بالزواج قبل فوات الأوان.

وعضت شفتها السفلى بانفعال ثم أضافت قائلة بأسى:

- من يتكفل بك إذا مت؟ لا أحد.. لا أحد..

وغرق عمار الحر في بحر من الوساوس القاتلة. خاف أن يواجه هموم الوحدة المخيفة التي قد تبعده عن كل الناس. وظلت أمه الحزينة تحدق في وجهه المتعب.

انتظرت منه ردا ولما لاحظت سكوته المنذر بالغضب الشديد، وضعت فنجان القهوة على المكتب الخشبي وخرجت من الغرفة وهي تنصحه بالتفكير الجاد في أمر زواجه من فوزية العسلي.

ونهض عمار الحر ودار حول نفسه ثم عاد إلى مكتبه الخشبي. قلب أوراقه المبعثرة بيد مرتجفة.. اغمض عينيه لحظة طويلة والألم يعصر قلبه. ها هي فوزية العسلي تفر منه دون أن تعلمه بنيتها في ذلك. وهل أصبح منبوذا؟ وكيف نسيت حبا دام مدة سنوات طويلة؟ وكيف تجرأ الممرض "امحمد الكواش" على

خطبة فوزية العسلي؟ ألا يعلم بحبهما؟ هل أراد الانتقام منه؟ ربما؟ ولكن لماذا؟ لقد رآه ذات يوم مع نصيرة التل. ألا يكون في الأمر مناورة؟ ربما.. ربما.. ولكنه قرر أن يواجه المشكلة قبل فوات الأوان.. لقد تهاون كثيرا إلى درجة أن فوزية تمردت عليه ولم تهتم بموقفه منها وهو الذي كان ينتظر أن تزوره بعد عودته من المستشفى. ونهض من جديد وتوجه نحو جهاز الهاتف فرفع سماعته وضغط على أزراره البلاستيكية السوداء ولما تناهى إلى مسمعه صوت فـــوزية العسلي قال لــــها بــــلوم:

- لقد سمعت ما أثار دهشتي.

وسألته فوزية عن صحته ثم قالت:

- تمنيت أن أزورك ولكن..

وقاطعها قائلا:

- أريــــد أن أعرف موقفك وبصراحة مـــن امحمـــد الكــــواش..

وتنهدت فوزية ثم قالت:

- موقفي واضح.. ولكنني أخشى غضب والدي..

وسألها:

- وما العمل؟

وأجابت بصوت مخنوق:

- والدي رجل عصبي وقد...

ثم أجهشت بالبكاء. وهل انهارت فوزية العسلي أمام ضغط والديها؟ خاف عمار الحر أن تنفلت منه الأمور فقال لها بحزم:

- لا تخش أحدا.. غدا سيزوركم أفراد عائلتي.. وستتم الخطوبة كما تحبين.. فما رأيك يا فوزية؟

وردت فوزية بصوت باك:

- سننتظركم..

وانتهت المكالمة الهاتفية وهو يبتسم لنفسه، منتصرا على تردده المخيف. شعر بأنه أنقذ حبه من الموت الأكيد. وصاح فرحا وهو يدور في غرفته:

- سأتزوج..

وستكون سعادة والدته عظيمة.. ستدوي زغرودتها القوية في أجواء المدينة التي ستشهد عرسه خلال هذا الصيف. وعاد إلى مكتبه الخشبي فجلس على الكرسي وامتدت يمناه نحو الفنجان فرشف منه قهوة باردة ثم مسك قلم الحبر وشرع في الكتابة بشوق ومحبة.. وبعد

لحظات طويلة توقف عن الكتابة وفكر في عنوان كتابه.. اختار له عنوانا جديدا رآه مناسبا لما يجرى حوله من تحولات لم يستطع متابعتها ولكنه فكر في العنوان الذي خطر بباله لأول مرة وهو: "شاعر المدينة".. وكتب العنوان الجديد على ظهر ملفه الأصفر ثم قرأه بصوت مسموع.. لقد وجد في عنوان: "الوساوس الغريبة أو على هامش مقتل الأرملة الثرية" مبتغاه.. وعاد إلى الكتابة فالمهم عنده الآن هو أن يكتب.. وسيبرهن لفوزية العسلي بأنه الأقوى.. وسيثبت للنائب ولكل الناس بأنه قادر على العطاء.. ولن يسمح للملل أن يستولي على نفسه سيقاومه حتى ينجز عمله.. وواصل الكتابة بمحبة كبيرة.

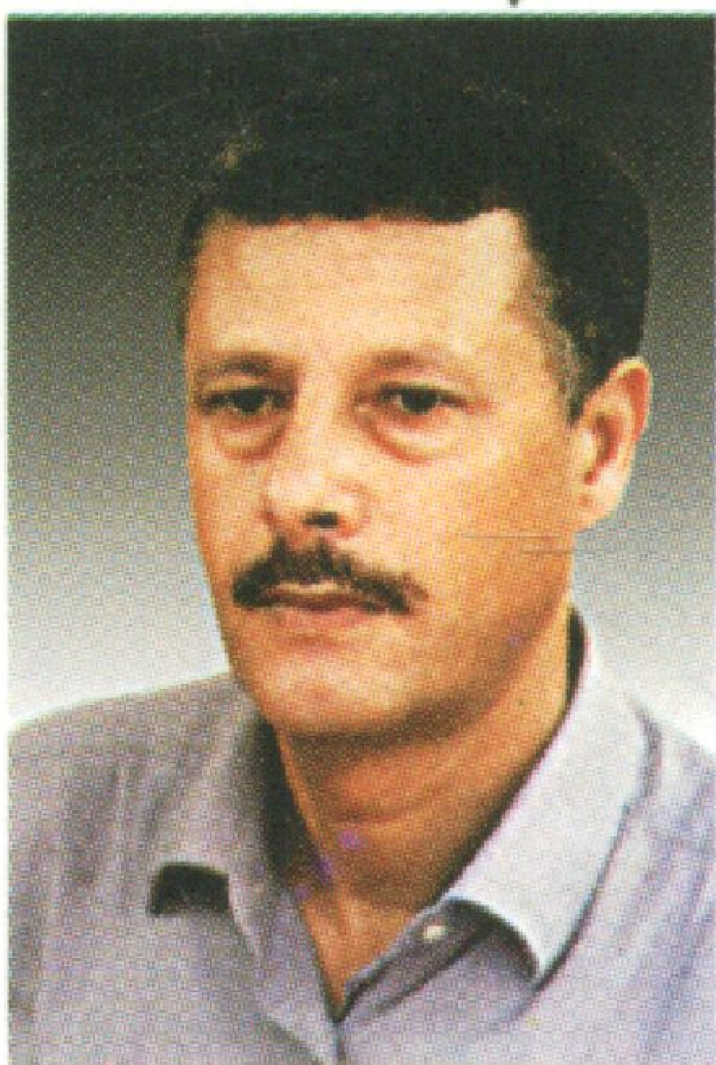
غليزان- الجزائر العاصمة:
2001 - 2000

مؤلفات محمد مفلاح :

- السائق – قصص– 1983
- الانفجار–رواية – 1983(ط1984 2-) مترجمة إلى الفرنسية–سنة 2003
- هموم الزمن الفلاقي – رواية – 1985– (ط2– 1986)
- بيت الحمراء– رواية – 1986
- زمن العشق والأخطار– رواية –1986
- الانهيار– رواية – 1986
- خيرة والجبال– رواية – 1988
- مغامرات النملة كحلية – قصة للأطفال– 1990
- معطف القط مينوش– قصة للأطفال – 1990
- أسرار المدينة – قصص – 1991
- وصية الشيخ مسعود – قصة للفتيان– 1993
- الكافية والوشام – رواية – 2002
- شهادة نقابي (حول الحركة النقابية)– 2005

المخطوطة :

-السبت الأسود (رواية)
- الدروب المتقاطعة (رواية)
- سيدي الأزرق بلحاج، رائد ثورة 1864 (بحث تاريخي)



الوساوس الغريبة

" أقول أن رواية "الوساوس الغريبة - على هامش مقتل الأرملة الثرية " غنية بما حوت من أفكار وقيم ومثل جاءت على ألسنة شخصياتها وساردها في كثير من المقامات كما أن بنيتها الجمالية والأسلوبية وأبعادها الوظيفية تنبئ بإمكانات فنية مهمة من السارد -الخارج نصي- أي السارد خارج الخطاب وهو الكاتب، وتعلن عن قدرة متميزة في تطويع لغة القص والتحكم في ملكتها، وتحميلها طاقات دلالية عميقة الرؤية بعيدة التصور. "

أ.د/ نورالدين

"إن مرجعية محمد مفلاح واسترا [illegible]
على وتر العلاقة التعاضدية [illegible]
المعيش وتداولاته السيروراتية ك [illegible]
مشروع سرداني جديد وس [illegible]
الغريبة -على هامش مقتل ا [illegible]
تتظافر فيه مجموعة من الميكان [illegible]
لنجا [illegible]

أ.د/ محمد البشير بويجره

ISBN 9961 - 906 - 56 - X